كتابات هادفة

حياة انسانية شريفة

١	مقدمة السبرمان	١٩١٠
٢	نشوء فكرة الله	١٩١٢
٣	الاشتراكية	١٩١٣
٤	أشهر الخطب	١٩٢٤
٥	الحب فى التاريخ	١٩٢٥
٦	أحلام الفلاسفة	١٩٢٦
٧	مختارات سلامة موسى	١٩٢٦
٨	حرية الفكر	١٩٢٧
٩	أسرار النفس	١٩٢٧
١٠	تاريخ الفنون	١٩٢٧
١١	اليوم والغد	١٩٢٨
١٢	نظرية التطور	١٩٢٨
١٣	قصص مختلفة	١٩٣٠
١٤	الدنيا بعد ٣٠ عاما	١٩٣٠
١٥	فى الحياة والأدب	١٩٣٠
١٦	ضبط التناسل	١٩٣٠
١٧	جيوبنا وجيوب الاجانب	١٩٣١
١٨	غاندى والحركة الهندية	١٩٣٤
١٩	ماهى النهضة	١٩٣٥
٢٠	مصر أصل الحضارة	١٩٣٥
٢١	الادب الانجليزى الحديث	١٩٣٦
٢٢	الشخصية الناجحة	١٩٤٢

مطبعة التقدم
ت : ٢٦٠٢١

طبعة خاصة
٣٠
قرشا أو ما يعادلها

الصحافة حرفة ورسالة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزى ذكى

القاهرة

سلامه موسى

الصحافة .. حرفة ورسالة

سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف
ص ب ٩١٢ القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٦٣

يوم أن ماتت صحافة مصر

فى سنة ١٩٣٠ كان يبدو للمتأمل أن الصحافة قد باتت من الفنون التى لا ينجح فيها سوى غير المصريين . وقد ينتهى من تأمل الواقع — فى انتشار الصحف غير المصرية ، وانخذال الصحف المصرية ، وغنى الصحفيين الأجانب وامتلاكهم الدور الفخمة والضياع الخصبة ، وفقر الصحفيين المصريين ، وتشردهم فى الشوارع لا يملكون كوخا ولا قيراطا — أن الكاتب الأجنبى فى مصر أذكى عقلا ، وأبعد نظراً ، وأدق تحريراً للصحف ، مجلات كانت أو جرائد ، من الكاتب المصرى

ولكن هذا الاستنتاج سرعان ما ينقلب إلى النقيض عندما كان يتعمق القارىء فى تأمله ويربط النتائج بأسبابها . فالحقيقة أن الظروف السياسية كانت مدة الاحتلال الإنجليزى (أى سنة ١٩٢٠) تعمل لكبت الروح الوطنية بمساعدة الجرائد الموالية للإنجليز ، ومعاكسة تلك التى تناوئهم . فنحن نرى عقب الثورة العرابية أن الحكومة تدفع تعويضا ضخما لأصحاب جريدة غير مصرية ، لأن الثائرين كسروا المطبعة لانضمام هذه الجريدة إلى الخديو . وكان هذا فاتحة اليسر والخير

لتلك الجريدة . ثم نجد الإنجليز بعد ذلك يسندون بنفوذهم جريدة المقطم التي أصبح أصحابها بهذا السند القوى من أغنياء القطر المعدودين .
وعلى هذا كان يرى القارىء فى سنة ١٩٣٠ أن تفوق الصحف غير الوطنية لا يعزى إلا لأسباب لا يرضاها مصرى لنفسه

ثم جاءت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، وحدثت الانشقاقات فى الوفد بعد ذلك وصار لكل حزب جرائده . والصحفيون غير الوطنيين فى مصر يعيشون كالملوك « فوق الاحزاب » . فهم يتمصرون ، ولكن تمصرهم لا يحملهم على الغلو فى الوطنية . ولذلك فهم يستفيدون من الوطنية المصرية لأنهم يتحامون ما فيها من غلو ، هذا الغلو الذى جعل الاستاذ عبد القادر حمزة يصدر منذ سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣٠ «١٤» جريدة تقفل كلها ، بعضها اقفالا نهائيا وبعضها لبضعة أشهر . فلنفرض أننا قابلنا بين صحفى غير وطنى وبين الصحفى المصرى عبد القادر حمزة ، فهل من الانصاف أن نقيم هذه المقابلة على النتيجة الحاضرة ، وهى موت البلاغ وافلاس صاحبه ، بينما كانت الصحف المحايدة فى سنة ١٩٣٠ حية تملأ الشوارع ، وأصحابها قد تكدست خزائنهم بالمال ؟

نظن أن ذلك ليس من الانصاف . والذى كان يقول بعجز المصرى عن تحرير الصحف وادارتها لا يمكنه أن يضرب المثل بالبلاغ والصحف المحايدة التى كانت تنافسها فى ذلك الحين . بل هو إذا كان ضرب هذا المثل فى ذلك الوقت فإنه يفتح أعيننا للطرق التى كان يعيش بها الصحفى الأجنبى من الصحافة ، وهى طرق لا يرضاها مصرى . ومن البديهى أنه لا يمكن لمصنع فى العالم أن يعيش إذا كان يعرض للاغلاق ١٤ مرة فى عشرة أعوام ، كما حدث للجرائد التى أصدرها الاستاذ عبد القادر حمزة

وهكذا أوشكت صناعة الصحافة فى ذلك الحين أن تفلت من أيدينا وتمسى صناعة غير مصرية يحتكرها غير المصريين . وليس للصحفى الأجنبى ميزة علينا فيها سوى أنه لا يغضب عندما يجب الغضب ، ولا يبالى مصلحة مصر تعرض للضياع مادام هو يربح من هذا الضياع ما يزيد دخله بضع مئات من الجنيهات . وهو على كل حال يمتاز بوطن آخر يمكنه أن يذهب إليه ويعيش فيه إذا لم يوافقه العيش فى وطننا . ولكن أين نذهب نحن ؟ !

وكان عاراً علينا أكبر العار أن يوكل تكوين الرأى العام المصرى إلى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا فى المزاج ، لا يشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من أمانى وآمال ، ولا يؤلمها ما يؤلمنا

وظهر نوع من الصحف المحايدة . وكان على رأس إحدى هذه الصحف صحفى قارح . وكانت توارب وتراوغ ، فلا تستطيع إلا أن تشمئز منها . فهى تكتب أحياناً مقالا مستور اللهجة والغاية ، تخرج منه بأن حكومة معينة حسنة وحزبا معينا حسن . وكان هذا هو النفاق الذى يشمئز منه الانسان

وكانت هناك جريدة غير مصرية تهاجم حزبا ، ولكنها كانت تخشى أن يفلت منها القراء المائلون اليه . فهى تشطر نفسها شطرين ، لتضمن القارىء ، فتجعل نفسها حكومية ، وتجعل مجلة أسبوعية أخرى تصدر عن نفس الدار حزبية . فمن يكره الجريدة اليومية لحكوميتها يقرأ المجلة الأسبوعية لحزبيتها !

وكانت هذه المجلات والجرائد تعيش فى بلادنا ، ويربح أصحابها

الألوف من الجنيهات ، وتستقر لهم بها صناعة يثرون منها مع ما فيها من الأذى . بينما كتابنا المصريون أمثال محمود عزمى يبحثون عن عمل آخر غير الصحافة يستطيعون أن يعيشوا منه . لأن صحفنا المصرية كان قد مضى عليها عشرون سنة وهى تعطل ويخرب أصحابها ويشتت محرروها. أما الصحف الاجنبية فلا تعطل ولا يمس أصحابها أذى

وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين ، فيما يجب علينا ، وما لا يجب أن نتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط . كأن الصحفى الأجنبي هو الوحيد الذى كان يؤتمن على مصلحة مصر فى الصحف . أما المصرى فلا يؤتمن على ذلك

وكان هذا شقاء

وكان هناك صحفى غـــير مصرى يكتب كل صباح مقالا افتتاحيا للمصريين عن فوائد الاحتلال البريطانى ، وجهالات الوطنيين الذين لا يعرفون ما يقولون . وكان هذا الصحفى يسمى الزعيم مصطفى كامل «شحاذ بردنجوت » . وكان قبل ذلك يكتب فى جريدة فى الخرطوم ، يشتم المصريين ويمدح الانجليز . وكان يكتب كل يوم مقالا عن الأوباش المجرمين الذين يطالبون بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل فى مصر . ويدعو الرجعيين إلى أن يملأوا صحيفته بآرائهم . فاذا وجد من ذلك فائدة مالية تملأ اليد فذاك ، وإلا فانه يدعو المجددين للكتابة فى صحيفته ويحثهم على شتم الرجعيين . ثم يدعو فيقول ان هذه الوزارة حسنة وتلك سيئة ، وأن النظام البرلمانى لا يفيد المصريين كثيراً ، وانما يفيدهم بناء الموانى وصنع السفن الخ . وعاشت تلك الجريدة طول عمرها تقول

إن احتلال الانجليز لمصر خير من استقلالها . وكانت صحيفة غير مصرية أخرى فى الصراع الذى قام بين الخديو توفيق والحزب الوطنى تمالىء الخديو وتساعده على الأمة التى نكبت به

وكان كل هذا مسبة لذكائنا ووطنيتنا وعاراً بل فضيحة لتغلب هذه الصحف على صحافتنا

وهكذا كان أولئك الصحفيون غير المصريين أغنياء ، وكنا نحن الصحفيين المصريين فقراء . وليس ذلك لأنهم أذكياء ونحن بلداء ، لأننا كنا نكتب بضمير وطنى ، ونغضب ، عندما نعتقد أن الغضب واجب . وهم يكتبون بضمير غير وطنى ولا يغضبون لأية نكبة تنزل بنا ، لأن الوطن ليس وطنهم بالعاطفة والقلب

وكانوا لا يبالون بالأذى يصيب عقولنا . وهم أغنياء يملكون دوراً كالقصور ، ويعيشون فى ترف قد لا يبلغه الوزراء . ولم تكن هذه الجرائد والمجلات غير المصرية تخشى تعطيلا من الحكومة . ولم يكن أحد من التجار يتوقع لها موتا قريبا أو بعيـــداً . ولذلك كانت تنال اعلاناتهم وتستحوذ بذلك على آلاف الجنيهات التى يحرم منها الصحفى المصرى لأن التجار لا يثقون بصحفه إذ هى عرضة للتعطيل فى كل وقت

ونترك هذه الصحف غير الوطنية ونقصد إلى حيث كان يعيش الصحفيون المصريون ، فكأنك انتقلت من مدينة الأحياء إلى جبانة الأموات . كنت تجد أحدهم قابعا فى غرفة أو شقة وقد تأخر عليه إيجاره لخمسة أو ستة أشهر . أو كنت تجده يصدر الصحيفة وهو لا يملك المطبعة . أو هو يملك المطبعة ولا يملك الصحيفة . وكنت تقرأ الصحيفة المصرية

فلا تجد بها أخباراً ، لأنها عطلت مراراً حتى تركها المخبرون وبحثوا لهم عن عمل آخر يستطيعون أن يعيشوا منه

ودار الصحيفة مصنع ، تكتسب الخبرة فيه بالتجارب المتكررة وبحظى بعطف التجار بالاستمرار . فالصحيفة إذا عطلت ١٤ مرة فى ١٠ سنوات ، كما عطلت جرائد عبد القادر حمزة ومحمد التابعى واحمد حافظ عوض وتوفيق دياب ، لاتستطيع أن تحظى باعتماد التاجر فى اعلانه . بينما كان الصحفى الاجنبي المحايد يمكنه أن يختار أحسن المخبرين ويشترى الورق بالثقة . وكان لايمكن للصحفى المصرى أن يفعل ذلك . كان قد مضى عليه عشرون سنة وهو مزعزع ، تقفل داره فى أى وقت ، ويطرد إلى الشارع فى أى وقت . ولذلك لم يكن يثق به أحد . عشرون سنة مضت من الاضطهاد للصحافة المصرية قضت علينا وجعلتنا فقراء

وكانت لنا خصومات داخلية أسدلت على عيوننا غشاوة ، فصرنا لانفقه الحق . ولانستطيع تمييزه من الباطل ، حتى بتنا ينبذ بعضنا بعضا بالخيانة . فصار الدستورى لايقرأ جرائد الوفد . وصار الوفدى لايقرأ جرائد الدستوريين . فانتهت القصة أو المهزلة بأن التجأنا إلى الجرائد المحايدة نقرأها ، لأنها ليست وفدية ولادستورية

ومضى علينا أكثر من عشرين سنة وجرائدنا ومجلاتنا تقفل بحزبية عمياء وعصبية صماء . وسقطت الصحافة المصرية بذلك ، وخسرت فى ذلك الحين كل شىء إلا الشرف . فصار الغنى فى جانبهم والفقر فى جانبنا . والوجاهة لهم والاحتقار لنا . وكل ذلك لأننا كنا نخلص لمصر وطننا

وكنا نصدر الجريدة أو المجلة فلا يثق بنا تاجر ويأتمننا على إعلان واحد . وكنت تفتح الجريدة الأجنبية في مصر فتراها حافلة بالاعلانات التي تعود على أصحابها بعشرات الالوف من الجنيهات ، ولكنك كنت تفتح المجلة أو الجريدة المصرية فلا تجد بها اعلاناً واحداً يستحق الذكر

وهكذا انهزمت الصحافة المصرية ، وأصبح الصحفي المصري شخصا ساخطاً فقيراً ، أضاع ماله كما أضاع عمره في صناعة اعتقد أنه سيجد فيها المجال للخدمة الصادقة لأمته . فعادت عليه هذه الصناعة بخسارة العمر وخسارة المال . وكنت أينما سرت ، من الاسكندرية إلى اسوان ، لاتجد إلا جرائد ومجلات مصرية في النزع الذي تستقبل فيه الموت القريب

مثل هذه الحال كان يجب أن ندرسها ، وأن نتعرف أسبابها ، لأنها حال لم تتفق وكرامتنا الوطنية أو مصلحتنا الاقتصادية

الصحيفة هي مرآة الأمة . مرآتها اليوم تريها نفسها كما هي الآن ، ثم هي مرآتها في الغد تريها نفسها كما يجب أن تكون في المستقبل

وهي لهذا السبب يجب إلا يقوم بها أجنبي غريب عنها في الدم أو المزاج أو الرجاء . ولكل أمة مزاجها الذي تتميز به من سائر الأمم . فنحن نضحك من النكتة التي لايضحك منها الاجنبي لأن لنا مزاجا هو خلاصة آلاف السنين من الوراثة ليس لأحد أبناء الأمم الأخرى . ولكل أمة فكاهتها التي تضحكها ولا تضحك غيرها . فقد يأخذ أحدنا مجلة بنش الانجليزية أو سمبلسموس الألمانية ويقلب صفحاتها فلا يفتر ثغره بابتسامة ، بينما يجد الانجليزي أو الالماني فيها مايجعله يقهقه

فهذا المثال البسيط يدلنا على أن لكل أمة ذوقا لا يستجيب للغريب في النكتة والفكاهة . وهي كذلك لا يمكنها أن تستجيب للغريب في الادب أو الصحافة ، بل هي إذا استجابت له في ذلك فاستجابتها برهان على أن ذوقها قد فسد ونفسها قد وهنت لطول ممارستها لها . وهذه الصحف والمجلات الاجنبية في مصر لم تكن تعبر عن النفس المصرية أو الذوق المصرى ، لأننا كما نختلف عن الأجانب في النكتة والفكاهة كذلك نختلف في الروح الصحفية . ومن الافساد الكبير لأذواقنا ونفوسنا المصرية أن نطبعها بطابع أجنبي

ولكل أمة رجاء تقصد اليه بقلبها وعقلها . ونحن لنا رجاء الاستقلال والحرية والاصلاح الاجتماعى ، وهو رجاء لا يؤنس قلب الصحفي الاجنبي . ولو أنه آنسه لكانت بلاده أولى به منا

لقد مات مصطفى كامل فكان شبابنا يبكون في الشوارع . ومات بعد ذلك سعد زغلول فكانت نساؤنا قبل رجالنا يبكينه في البيوت . فهل بكى الاجنبي من أجل مصطفى أو سعد ؟

وكان لنا مسائل اجتماعية ، منها مسألة المرأة ، ومسألة الفلاح ، وهي مسائل كانت تشعرنا بالضعة والانحطاط كلما رأينا الشقاء الذى يعيشان فيه . وكنا نحن راضين بالتضحية والجهاد من اجل إصلاحها . فهل كان يرضى الصحفى الاجنبي في مصر بأن يضحى بشيء من ماله أو نفسه من اجل ذلك ؟ كلا . لأن رجاءنا كان يختلف عن رجائه

والصحافة هي بعد ذلك نوع من الأدب الجديد ، أدب الجماهير والعامة ، فهل نحن نبغى منه أدبا مصريا أو أدبا أجنبيا ؟

ليس شك أننا كنا نريد أدبا مصريا . كنا نريد من الصحفى المصرى أن يخاطبنا بلغتنا ، وأن يحرك فى نفوسنا الأمانى المصرية . ولم ننتظر من الصحفى الاجنبى أن يؤدى لنا هذا الواجب . بل هو لا يستطيعه لو أراده لأن نفسه غير نفسنا . فلم نكن ننتظر من الجرائد والمجلات الاجنبية أن تطالبنا بدرس الحضارة الفرعونية ، كما فعل الدكتور محمد حسين هيكل ، وأن يثبت على هذه الدعوة بينما المجلات الاجنبية تتهمه بالالحاد من أجلها . ولم نكن ننتظر منها أن تدعونا إلى وطنية مصرية ، كما فعل الاستاذ لطفى السيد فى الجريدة ، مع الاهانات المتكررة التى لقيها من العامة على ذلك

والخلاصة أن الصحيفة التى يقرأها المصرى يجب أن تكون مصرية بالدم والروح والمزاج ، لأنها مرآة نفسه فى اليوم والغد. وتمثل رجاءه فى الاستقلال والحرية . وتنشد له أدبا مصريا يتفق ومزاجه ولغته وبيئته ومصريته

وكانت الصحافة تجارة مثل أى التجارات ، ولكن كانت قيودها أثقل من سائر التجارات . وكان الصحفى المصرى يحمل هذه القيود راضيا وينزل على شروطها صاغراً ، لأنه كان يراها تتفق ومصلحة وطنه التى هى أكبر من مصلحته . ولكن الصحفى الاجنبى لم يكن يبالى بهذه القيود ، فهو كان ينشد من هذه التجارة الربح . والربح فقط

لهذا السبب مضت علينا ثلاثون سنة والجرائد المصرية تعطل بينما الجرائد الاجنبية لا تعطل . وانتهت هذه الحال بأن أصبحت الصحافة فى مصر صناعة أجنبية كاد ينساها المصرى . ونحن نعرف من الشبان

المصريين عشرات هجروا الصحافة لأنهم وجدوا من تعرضها المستمر للتعطيل مايجلب عليهم الجوع والحرمان ، فتركوها ساخطين .

والصحفي الاجنبي المحايد لم تتعرض جريدته للتعطيل لأنه كان يسير مع كل حزب ويمشي وراء الغالب . وهو لم يكن يشعر بالعار يلحق بالانسان إذا استبدل بآرائه وخططه السياسية خططا وآراء أخرى ، كما يستبدل الانسان حذاءه ، وذلك لأن مصر ليست وطنه . وهو انما هاجر اليها يبغى منها المال ولم يبغ منها وطنا . ولهذا السبب لم تكن تجد أجنبيا ينضم إلى حزب معين من الأحزاب السياسية المصرية ، وقد تسمع منه أنه متمصر وأنه لايعرف من الأوطان سوى مصر ، ولكنه مع ذلك لم يكن يرضى أن يكون وفديا أو دستوريا لأن مصلحته التجارية كانت تدفعه إلى أن يبقى خارج الأحزاب يستغلها كما يشاء . ولأنه كان يخشى اذا هو تقيد بأحد الأحزاب أن يتعرض للتضحية. ثم هو إلى الأغراض المالية والكسب المادى كان يسير على الدوام مع الكثرة من العامة فى الشئون الاجتماعية

وكنا نحن فى مصر نطالب بحرية المرأة . ولكنه كان يرى أن العامة تكره هذه الحرية ، ، فهو يسير مع العامة ويدافع عن الحجاب ، مع أنه فى بيته وبين أهله وبنى وطنه كان يضحك منا وينسب تأخرنا إلى الحجاب . وهذا هو السبب فى المقالات الكثيرة التى كان يكتبها الرجعيون فى الجرائد المحايدة الاجنبية فى الدفاع عن الحجاب وتفشى الالحاد فى مصر

هذا إلى هذر وهذيان وسخف من القصص والحكايات والخرافات

كان يكتب فى الصحف الاجنبية لتسميم العامة وإضعاف عقولها

وبينا كنا نرى الصحف المصرية معطلة، والأقلام المصرية مقصوفة، نرى المجلات الاجنبية تنساب بين العامة كأنها الحيات السامة . تشرح لهم كيف أن « الاستاذ » حافظ نجيب كان ينصب على الناس . وكيف أن بطلا من أبطال الأوباش كان يأكل حذاء كاملا . وكيف استطاع شحاذ أن يشترى بالشحاذة عقاراً ضخما . وكيف يدخن الحشيش ، وأين ؟

وكان يكتب هذا فى مجلات أنيقة الطبع ، تستهوى العين بالصور الجميلة وبالطبع الحسن ، فيقرأها الشاب المصرى ويضعف عقله ويختل نظره للأشياء . حتى ليظن العبقرية فى النصب والشحاذة والسخافة

ولنضرب مثلا على الاجنبي فى مصر بواحد منهم جعل الصحافة المصرية هذراً وهذيانا ، يجمعون منها قروش العامة ، ويثرون ، بينما عبد القادر حمزة ومحمد التابعى وعباس العقاد وحافظ عوض وتوفيق دياب ومحمد أبو طايلة واحمد حلمى وغيرهم ، تقصف اقلامهم وتخرب بيوتهم

كان هذا « الاستاذ » يكتب فى المجلات الاجنبية قصصا يتكرر بعضها عشر مرات أحيانا عن فتح الله بركات باشا ، الذى يختلف عن سائر الناس أجمع من حيث أنه لا يأكل المدمس وانما هو يغمس اللقمة فى مرق المدمس فقط . ويذكر « الأمير » فاروق فيقول عنه : انه لايخاطب جلالة والده أو والدته بقوله «ياصاحب الجلالة» أو « ياصاحبة الجلالة » ، وانما يقول كما يقول سائر الأطفال فى العالم : يا «بابا» و يا «ماما» . ثم يذكر الامير عمر طوسون فيقول عنه : انه يدخن الشيشة قبل الظهر .

ويدخنها أحيانا بعد الظهر . وأحيانا لايدخنها قبل الظهر أو بعد الظهر .
ثم هو ، أى الأمير ، يأكل فى الغداء أكثر من العشاء ، وأحيانا يأكل فى العشاء أكثر من الغداء

ثم يقول أن الاستاذ لطفى السيد تقابل مع على الشمسى باشا فبدلا من أن يبدأ التحية على باشا بدأها الاستاذ لطفى السيد

هذا هو الكاتب المثالى الاجنبى الذى كان يكتب للعامة هذا الهذر ليضعف عقولهم ، بينما كتابنا المخلصون كانت أقلامهم قد قصفت . وكان بعضهم يبحث عن عمل آخر غير الصحافة يمكنه أن يعيش منه دون أن يتعرض للجوع

وفى سنة ١٩٣٠ أصدر اسماعيل صدقى باشا قراراً بإقفال ثلاثة مصانع مصرية

هذه المصانع المصرية هى :

١ — البلاغ . لصاحبه عبد القادر حمزة

٢ — الكوكب . لصاحبه أحمد حافظ عوض

٣ — اليوم . لصاحبه توفيق دياب

وكل من هذه الجرائد كان مصنعا يحتوى على آلات كبيرة ، ومواد كيماوية ، ويحتاج إلى عمال ميكانيكيين وكيماويين يفهمون الآلات ويدرون بالاصباغ . ولا يمكن لأحد هذه المصانع أن يرتقى ويبلغ درجة من الاتقان تجذب عين القارىء إلا بعد تجارب وتضحيات كبيرة . وقد كان يعيش فى كل من هذه الجرائد وحولها نحو خمسمائة أسرة مصرية

ولكن هذه المصانع المصرية أقفلت ، فوثبت الصحف المحايدة

الأجنبية إلى الأمام وأخذت مكانها . والجريدة ترسخ بالزمن لأنها مصنع يرتقى بالتجارب الفنية ، والزمن وحده هو الذى يجعلها تنال حظوة التجار فى الاعلان عن بضائعهم ، والتاجر لا يمكنه أن يأتمن جريدة على إعلانات وهى معرضة للموت فى أى يوم

وهذه الخطة فى إقفال الجرائد المصرية قد مضى عليها عشرون سنة، بل أكثر ، وكانت تسير نحو هدم الصحافة باعتبارها صناعة مصرية وإحيائها باعتبارها صناعة أجنبية . حتى بتنا نحن الصحفيين المصريين نرى الهزيمة واضحة فى جانبنا والفوز ظاهراً فى جانب الأجانب . وبينما كانت الحكومة تسن القوانين ، لمساعدة المصانع الأخرى ، تعمد إلى المصانع الصحفية المصرية فتقتلها . فكنا فى حاجة إلى تغيير الخطة كلها للمحافظة على هذه الصناعة

ونحن نضرب مثلا عن شناعة هذه الخطة بجريدة البلاغ . فهذا « البلاغ » قد اشترى فى سنة ١٩٣٠ ماكينة للطبع لا يقل ثمنها عن سبعة آلاف جنيه ويبلغ قسطها الشهرى ٧٠٠ جنيه . وكانت هذه الماكينة تستطيع إخراج البلاغ بالألوان والصور ، وقد عطله اسماعيل صدقى بعد تجارب مضى عليها أشهر ، كانت كلها خسارة فى انتظار الربح القادم. أى لما أوشك كل شيء أن يتم ، وبعد التضحيات الكثيرة ، عطلت الجريدة . ولم يكن على الاستاذ عبد القادر حمزة سوى أن يبيع هذه الماكينة بأبخس ثمن أو أن يعلن إفلاسه. وفى إفلاسه إفلاس العمال الذين تعلموا هذه الصناعة . بل إفلاسنا جميعا

ثم كانت إحدى الجرائد الاجنبية التى تسير مع كل حزب وتجرى

مع كل ريح ، وتضحك منا جميعا ، قد اشترت ماكينة للطبع بالألوان أيضاً . ونجحت بها . ولم تخش الجريدة الخسارة لأن صاحبها لم يصدم بأية قوة غالبة فى البلاد . وعندما عاد البلاغ إلى الظهور كانت الصحف الاجنبية المتفرجة قد رسخت ونالت حظوة القراء ، وحظوة التجار فى الاعلانات ، فلم يستطع البلاغ أن يزحزحها عن مكانها

والمغزى أن مصنعا أجنبيا كان يتغلب على مصنع مصرى ويقتله . والنتيجةأنى أنا وأنت ، أيها القارىءالمصرى ، كنا نخسر بهزيمة الصحف المصرية التى يعطلها الحاكم

والعلاج الوحيد هو أن ننقل العقاب من الصحيفة إلى الصحفى

فالصحيفة المصرية مصنع يجب الايقفل بأية حال . فاذا حدثت عن سبيلها جناية فلنعاقب الجانى ، وهو الشخص الكاتب . ولا نعاقب الصحيفة . فلنفرض أن جريدة البلاغ مثلا ارتكبت جناية ، فلنقبض على المرتكب ونعاقبه ، أما الجريدة فيجب أن تصدر كل يوم لأنها فى نفسها لاترتكب الجنايةوانما هناكشخصأو أشخاص يرتكبونهاوهمالذين يستحقون العقاب

وقدكان القدماء يعاقبون الآلة التى ارتكبت بها الجريمة فيتلفونها . ولكننا إرتقينا عليهم وقصرنا العقاب على الشخص الجانى

أما الآلة فشىء نافع يجب أن يستمر فىالعمل . فإذا فرضنا أن قاطرة داست بعض الناس وقتلتهم . فنحن لا نتلف القاطرة ، بل نعاقب السائق، ونترك القاطرة تؤدى خدمتها للجمهور بعد أن يتسلمها سائق آخر خبير بالسياقة . وهكذا يجب أن تكون الحال فى الصحافة عندماترتكب إحدى

الصحف جناية ، نعمد إلى الكاتب فنجلده أو نحبسه أو نشنقه . ولكن يجب أن تترك الصحيفة تصدر كل يوم وتؤدى خدمتها للناس ، لأنها هى الآلة ، وهى حديد وحبر وورق ، لايمكنها وحدها أن ترتكب جناية، وانما المرتكب شخص يمكن استبداله وعقابه. ثم فى اقفال الجريدة أو المجلة قتل لصناعة مصرية يجب أن تشجع وتعيش مثل سائر الصناعات

لما كانت الصحافة محتقرة

أذكر أني في ١٩٢٣ احتجت إلى أن أستأجر مسكناً بالقاهرة . وقصدت إليه وعاينته وارتضيته بأجرة شهرية قدرها سبعة جنيهات . وشرعنا في كتابة عقد الايجار . وما هو أن فهمت مالكة المسكن أني صحفي حتى إنتفضت من مقعدها وهي تقول : « جرنالجي » ويدفع منين سبعة جنيهات في الشهر ؟

ورفضت التوقيع على العقد . ولم تجد معها المناقشة والشرح . وخرجت وأنا أتعثر في ثوب الخيبة

واستطعت ، بعد أن تشفعت بقريب لها ، وبعد أن دفعت مقدماً أجرة ثلاثة أو ستة شهور ، أن أحصل على رضى المالكة وعلى المسكن

وقد مضى على هذه الحادثة ٣٥ سنة ولكني أذكرها كي أبين للقارىء المكانة المحتقرة التي كان الصحفي يحتلها في المجتمع المصري . وكانت كلمة « غازيتجي » من الكلمات التركية التي تعني « صحفي » . وكانت مألوفة عند الطبقة الحاكمة في بداية هذا القرن ، وكانت تحمل معنى التشرد والفقر والصعلكة

ولما تزوج الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ابنة الشيخ السادات أقام الاب دعوى عليه يطلب الغاء الزواج بدعوى أنه صحفى ، وأن الصحافة محتقرة ، ولا يليق بمن تنسب إلى « الإشراف » مثل ابنته أن تصاهره. وحكمت المحكمة الشرعية بالغاء الزواج على هذا الأساس . أى أن الصحافة مهنة غير شريفة ، ومحترفها لا يليق لمصاهرة اسرة « شريفة »

وقبل نحو ثلاثين سنة كان صادق سلامه صحفيا فى المنيا يراسل جرائد القاهرة . وكان يكتب فى انتقاد المدير وسائر الموظفين المسئولين فى المديرية . وغاظهم نقده . وذات صباح جاءه رجل البوليس يقوده إلى مأمور البندر . وهناك ووجه بتهمة التشرد . وتسلم « انذار » التشرد . وكان هـذا الاجراء بعض مايلاقيه الصحفيون من رجال الادارة والسياسة فى مصر فى تلك الأيام

ولكن صادق سلامه كان رجلا إلى نخاع عظامه . فقصد إلى القاهرة . وسعى حتى حصل على رخصة باصدار صحيفة اسبوعية أسماها « الانذار » تخليداً للفضيحة التى ارتكبها رجال الإدارة معه فى المنيا . وقد شرفنى بالتحرير فيها فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢

والواقع أن الصحافة قبل نحو أربعين أو خمسين سنة كانت من المهن المحتقرة ، إذا اعتبرنا أن نوع النجاح الذى يعترف به المجتمع هو النجاح المالى . فإنى أذكر أنى اشتغلت فى « اللواء » سنة ١٩٠٩ بأجر شهرى قدره سبعة جنيهات . وخرجت لعجز الجريدة عن دفع اجرى . بل خرجت ولى عندها متأخر شهرين أو ثلاثة شهور

ونستطيع أن نعزو انحطاط الصحافة المصرية إلى جملة أسباب

أولها أن الحكومة ، الاستعمارية الاستبدادية ، كانت تطاردها باعتبار أنها تحمل راية النقد لإدارة يجب أن تبقى مستترة عن أعين الجمهور . وكانت أيضاً تدعو إلى جلاء الانجليز المحتلين لبلادنا

ثم كان تأخر التعليم ، وتحديد عدد المدارس الحكومية ، يعمم الأمية أو يكاد بين طبقات الشعب . فكان جمهور القراء صغيراً لا يغذو جريدة يومية أو اسبوعية كثيرة النفقات . فكانت اجور الصحفيين ، تبعاً لذلك ، منخفضة

ولذلك كانت جرائدنا على الدوام فى افلاس ، بين التعطيل والغرامة وحبس المحررين والمخبرين . ولم تكن فى حالها هذه تتيح للصحفى أن يتربى التربية الصحفية . وقد مات اللواء ، ومات بعده المؤيد ، ثم الدستور ، ثم الجريدة ، وهذا غير عشرات المجلات . وأصبح الاعتقاد العام أن الصحافة مهنة خطرة ، تؤدى إلى الحبس ، كما هى مهنة المفلسين أو الموشكين على الافلاس . ولذلك لم يكن يقبل عليها الاكفاء الذين يجدون عملا آخر يتيح لهم الطمأنينة والكسب ألا أولئك الهواة المهووسين بالفن . وهؤلاء كانوا على الدوام قلة

ولهذه الأسباب جميعها كثيراً ما كنا نجد الشبان يلجأون إلى الصحافة كما لو كانت معبراً يعبرون منه إلى وظيفة حكومية . وكثيراً ماحدث هذا . فان المحرر أو المخبر باتصالاته بالموظفين كان يجدالفرصة لأن يثب من الصحافة إلى الوظيفة . ويترك الصحافة فى غير أسف

وبقى احساس الخطر من مهنة الصحافة قائما عند كثير من الصحفيين إلى وقت قريب . فإن الصحفى لم يكن لينتظر من مهنته أن تكون

رسالة حياته ، أو على الأقل مورد رزقه طيلة حياته . فكان يجمع منها ما يستطيع من مال كى يشترى ضيعة أو يقتنى منزلا . وهو بهذا العمل كان يخرب صحيفته ، اذ يكف عن ترقيتها ، بالانفاق عليها ، حتى تزداد خدمتها للجمهور . ولذلك كثيراً ما ماتت الصحف لأن أصحابها لم يرعوها بالتحسين والتوسع

وواضح أن هذا الاحساس بالخطر من مهنة الصحافة كان يعود فى الأكثر إلى القوانين الغاشمة التى ذكرناها ، والتى كانت تحمل الصحفى على أن يبحث عن عمل آخر ، أو يقتنى ما يكفل له العيش ، من مرتزق آخر . وخاصة إذا كانت صحيفته من تلك الصحف المكافحة ، وليست من تلك الصحف المتفرجة ، أى تلك الصحف التى وضعت نصب عينها مكافحة الاستعمار ومكافحة الاستبداد . فإن موقفها كثيراً ما كان يقضى عليها بالالغاء ، أى الموت ، أو الحبس المؤذى المهين ، أو الغرامة الفادحة

ويمكن أن نعد الصحف المصرية التى ظهرت ثم ماتت لموقف الكفاح هذا بالمئات منذ عرفت مصر الصحافة . وهى لم تمت إلا بعد أن بعثت فى قرائها روح الكفاح ، وبعد أن نادت ، وأطلقت صرخاتها ، من أجل الحرية والاستقلال ونزاهة الحكم . ولذلك لن ننسى فضلها

* * *

كانت الصحافة مهنة محتقرة ، كما كانت أيضاً خطرة ، ولكنها كانت أيضاً فقيرة

وكان مرجع فقرها إلى أنها كانت مهددة بالافلاس فى كل وقت . فلم تكن تؤدى من الأجور والمرتبات للذين يعملون فيها إلا أخس

المبالغ . ثم كان موقف العداء الدائم الذى كانت تقفه منها الحكومات الاستبدادية يحرم المشتغلين فيها أى ضمان من الاقالة أو حرمان المكافأة. وكان هناك من أصحاب الصحف استغلاليون ، دخلوا فى هذه الحرفة بنفس الروح التى يقدم بها التاجر على تجارة ما ، لايبغى سوى الربح . ولذلك كانوا يرهقون عمالهم من المحررين إلى الطباعين بالعمل الشاق الذى كثيراً ما أودى بصحتهم

وجميع الصحفيين يعرفون كيف أن إحدى الدور الصحفية القديمة فى القاهرة كانت ترهق محرريها بالعمل حتى كانوا يخرجون منها وهم فى انهيار نفسى ، لو أنه طالت مدته ، لكان قد حملهم على الانتحار أو قضى عليهم بالجنون . وكيف أن كثيراً من عمال الجمع والطبع اصيبوا بالسل لمشقة العمل . زد على هذا أنه لم تكن هناك مكافآت للصحفى عن سنى عمله إذا استقال . وقد عملت أنا سبع سنوات فى دار صحيفة مشهورة ، وخرجت ، دون أن أحصل على مليم واحد مكافأة

وكانت خسة الأجور والمرتبات من دواعى الاحتقار عند الشعب للصحفى . فاننا نعيش فى نظام ثرائى اقتنائى يحسب فيه مقام الفرد بمقدار ثروته ومايقتنى من عقار وما يحصل عليه من دخل

الصحافة تلقى عنتاً وعسفاً

بعض ما أكتب فى هذا الفصل قد أشرت اليه فى مواضع أخرى موجزاً عابراً . ولكنى أحتاج هنا الى الإيضاح والتركيز

فالصــــحف هى عين الشعب على الحاكين . فاذا كان هؤلاء من المستعمرين والمستبدين فانهم لا يطيقون هذه العين الناقدة البصيرة التى تعين الاخطاء وتفضح الخيانات وترتب المسئوليات . وقد كان كثير من الحاكين فى مصر منذ ١٨٨٢ إلى ١٩٥٢ خونة ولصوصاً، ترتشى ضمائرهم عن الحق والعدل ، وترضى نفوسهم نهب البلاد وقد رأيت كثيراً فى حياتى الصحفية من جرائم هؤلاء الحاكين

أذكر ، قبل أكثر من عشرين سنة ، أنى كنت فى دكان حلاق كنت اوثره على غيره لانه كان يستخدم حلاقا يدعى « المصرى » كانت له اتصالات بالصحافة . وكان يجيد الكتابة فى شئون العمال . وبينما هو يشتغل بقص شعرى إذا بشرطى يدخل ويلقى القبض عليه ويقيده .

وكانت التهمة التى سيق بها الى مركز البوليس هى « التشرد »

التشرد وفى يده المقص يقص شعر الزبون

وقد كانت تهمة « التشرد » من التهم المحبوبة المأثورة عند البوليس أيام الحاكمين المدنسين ، يتهمون بها الصحفي من وقت لآخر كلما عجزوا عن اثبات تهمة صحفية واضحة عنه

فقد القى القبض في المنيا على صادق سلامه وسلم « انذار » . وكان كل ما ارتكبه أنه كان يراسل صحف القاهرة وينتقد المدير والوكيل في المديرية . وأصدر بعد ذلك صحيفته الاسبوعية باسم « الانذار » في ذكرى هذا الحادث على ما ذكرنا قبلا وبقيت صحيفته بهذا الاسم الى أن توفى في ١٩٥٥

وأسوأ من هذا ، في باب الظلم ، ما حدث لاحد أصحاب الصحف . فقد كان في اوربا وكتب أحد محرري صحيفته كلمة استوجبت تحقيق النيابة . ولم يقرأ صاحب الصحيفة ما كتبه هذا المحرر ، ولم يعرف موضوع التهمة . فلما وصل الى ميناء الاسكندرية القى القبض عليه ، وحوكم ، وحبس بسبب ما نشره هذا المحرر وهو غائب في اوربا . وقد كان قانون الصحفيين في ذلك الوقت ينص على مسئولية صاحب الصحيفة لما يكتب في جريدته حتى ولو كان غائبا عنها . وكان هذا بعض العنت الذى اخترعته الامخاخ السوداء في رءوس المستبدين والمستعمرين في مصر في وقت ما

ومن هذا العنت أيضاً أن تختص محاكم الجنايات بمحاكمة الصحفيين في قضايا الجنح . وفي هذا الاحتيال العجيب لإيذاء الصحفيين اشارة واضحة الى الفساد الذى كان هؤلاء الحاكمون الفسدة يحاولون التسلل به إلى إفساد نزاهة القضاة

وكانت « المطبعة » التى تطبع بها الصحيفة المعارضة موضوعا آخر للمعاكسات . ذلك أنها تعد « مصنعا » ينطبق عليه تعريف الانجليز بقانون ١٩٠٤ للمصانع المصرية ، وهو أنه « محل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر »

وأذكر أنى كنت ، مع شريك ، قد أقمنا سنة ١٩٥٠ مطبعة فى قسم الازبكية لطبع صحيفة ، فلم نحصل فى مدى أربعة شهور على الترخيص بادارتها ، مع أننا كلفنا مهندسا متمرنا على شئون المبانى كى يقوم بالرسم ويعين المواضع . وجاء طبيب قسم الازبكية فوافق على الترتيبات جميعها . ولكنه عاد الينا بعد ذلك يقول أن الوزارة تطلب نقل النافذة ، نافذة المرحاض ، من الجهة الشمالية الى الجهة الشرقية . وأنه لا يعرف علة هذا الرأى . ويسألنا : هل نحن نعرفه ؟

ولم نكن نعرف سوى العنت الذى كانت الوزارة تهدف منه الى اقفال المطبعة . ونجحت فى ذلك

وفى تلك السنة بالذات فكر وزير الداخلية ، فؤاد سراج الدين ، فى اتخاذ جملة خطوات مشئومة ، ليست لتقييد حرية الصحف فقط بل أيضاً لإخفاء جرائم فاروق ورجال قصره الدنس حتى لا يقف الجمهور المصرى على الحقائق السوداء التى تمس رجال الحكم فى القصر . وذلك بأن أعد مشروعا لمنع الصحف من نشر أخبار القصر ، أى أخبار فاروق ونازلى ، وبولى ، و كريم ثابت ، وأخبار الراقصات اللائى كن يرافقن فاروق فى رحلاته الى الاسكندرية أو الصحراء ، وينزل معهن فى الاوبرج بالفيوم ، أو غير هـــذا الفندق فى الاماكن الاخرى

وأذكر أنه جيء بي من بور سعيد ، محروسا برجل البوليس الى القاهرة كي تحقق معي النيابة العامة بشأن جملة وردت في مقال لي بجريدة «الشعلة» هذه كلماتهـــا بالنص : « الاوبرج وما أدراك ما الاوبرج » !

وكان المحقق الاستاذ اسماعيل عوض الذي استطاع أن ينقذني . ثم ينذرني . و كانت كلمة الاوبرج من الكلمات الحساسة عند فاروق لمـا كان قد شـــاع وقتئذ بأنه يسلك سلوكا شائنـا في هذا الفندق

ولمـا هاج الصحفيون ، في شجاعة وشهامة ، على مشروع هذا القانون ، فكر فؤاد سراج الدين في مشروع آخر في ١٩٥٠ أيضاً هو « قانون الاشتبـاه السيـاسي » كي يصبح الصحفي مشتبها حين لا يمكن اثبـــات تهمة عليه . واستطاع الصحفيون أيضاً أن يئدوا هذا المشروع

وأذكر أن احدى الشركات التي كانت تطبع الكتب الشهرية قد تعاقدت معي حوالى ١٩٤٨ بشأن كتاب قديم لي كانت دار الهلال قد نشرته سنة ١٩٢٦ ، فلما كان بالمطبعة يجرى طبعه ، أوقف الطبع بدعوى أن الكتاب واسمه « أشهر قصص الحب التاريخية » يحتوى فصلا عن حب الملوك . وأن في هذا تعريضاً بفاروق

وفي سنة ١٩٤٥ ألفت كتيبا بعنوان « حرية العقل في مصر » دعوت فيه إلى منع مثل هذا العنت في معاملة الصحفيين والاحرار والمؤلفين

وعلى القارىء لهذا الفصل أن يذكر أسماء الصحف المكافحة التي

ماتت جميعها لأن المستبدين والمستعمرين لم يطيقوا صدورها .وقد ماتت بمثل هذه المعاكسات ، فى حين أن الصحف المتفرجة ، التى لم تكن تبالى لحش فاروق ، أو سرقات الوزراء ، أو نهب الاستعمار لكنوز بلادنا أو تأخر بلادنا فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،هذه الصحف عاشت وأثرى أصحابها حتى أصبحوا يملكون من العقارات وغير العقارات ما تبلغ قيمته مئات الالوف من الجنيهات

كيف أفسدت الحكومة الصحافة المصرية

كانت الحكومة المصرية ، أيام الاستعمار والاستبداد ، تمارس ألوانا من الفساد أو الافساد الصحفى يتجاوز الخيال . وهو فساد ، أو إفساد ، لم تعرفه أمة أخرى فى هذا العالم كله

فمن ذلك مثلا المصروفات السرية التى كانت ترشو بها الوزارات المتعاقبة الصحفيين حتى ينكروا الحق وينشروا الباطل . والذى ابتدع هذه البدعة هو عدلى يكن الذى هدف منها إلى محاربة سعد زغلول بتضليل الرأى العام وشق الأمة عليه عن طريق الصحافة . ولم تلغ هذه المصروفات السرية إلا بعد ثورة ١٩٥٢ . وكان فى إلغائها تطهير وتنظيف

وكان الغرور والزهو يحملان بعض الوزراء على أن يسخوا سخاء الاغداق على أحد الصحفيين لأنه كان ينشر صورهم فى جمال ساحر ، وإن يكن زائفا ، ويصف مآثرهم ، وإن لم تكن مآثر . ويروى القصة تلو القصة بشأن إصلاحاتهم التى لم يكن يعرفها الجمهور إلا فى الصحف . واتضح من الكشف الذى أذاعته حكومة الثورة فى ١٩٥٢ أن إحدى الصحف الأسبوعية التافهة حصلت على أكثر من ٢٦ ألف جنيه .

وكانت صفحاتها وقفا على الثناء على وزراء الاستبداد . فلا مقال عن العلم أو الأدب أو الصناعة أو الزراعة أو السياسة ، وإنما كل ما كان فيها كلمات رنانة وجمل مرصعة فى الثناء على الذين يمنحونها هذه « المصروفات السرية »

ثم كانت هناك رشوة اخرى لافساد الصحفيين هى الاعلانات الحكومية . فصاحب الجريدة المستقل المعارض ، الذى يهدف إلى الاصلاح ولا يفتأ ينادى بقمع الفساد ، يحرم الاعلانات ، أو لايحصل منها إلا على التافه . فى حين أن الصحفى الذى يمدح ويتغنى بعدل المستبدين ينال الألوف من الجنيهات . بل إن إحدى الصحف الأسبوعية التى لا يزال يذكرها الصحفيون نالت من إعلانات الحكومة فى عدد واحد ما تزيد قيمته على نحو ثلاثمائة جنية

وهذا فى الوقت الذى لم تنل فيه صحيفة يومية فى أربعةشهور كاملة تصدر فيها كل يوم ، وتباع ، وتذاع ، لم تنل سوى ما قيمته أربعون جنيها . أى بمتوسط عشرة جنيهات فى الشهر . ولم يكن لهذهالصحيفة من ذنب سوى أن محررها كان رجلا حراً يأبى الثناء الرخيص الكاذب على وزير الداخلية المتصرف

وكانت الاعلانات الحكومية ، التى كان هدفها فى الأصل خدمة الحكومة بتنبيه الجمهور أو المقاولين أو غيرهم ، وسيلة لافساد الجريدة أو المجلة . وأذكر أنى حين أخرجت مجلة المصرى فى ١٩٣٠ ، وعارضت فيها إسماعيل صدقى فى سياسته ، عمد إلى التوسل إلى افلاسى بحرمانى هذه الاعلانات . ولم يحرم «المصرى» فقط بل حرمت ١٢ مجلة أخرى

أصدرتها بعد إلغائه

وكنت فى تلك الأيام عرضة لزيارات لا تنقطع ، غايتها أن أخضع ، مع عرض المكافأة السخية ، وهى الاعلانات . ولم أخضع . ولذلك أفلست جميع المجلات التى أصدرتها

ومثال آخر لرشوة وافساد الصحفيين ، هو اشتراك وزارة « المعارف » وغيرها من الوزارات فى بعض المجلات والجرائد دون بعض . فقد كان المقياس هنا ليس منفعة الطلبة والتلاميذ أو الموظفين ، ولكن موقفها ازاء السياسة التى تتبعها الوزارة . فإذا كانت الصحيفة معارضة ، وتنتقد ، فإنها تقاطع . وإذا كانت موالية ، تمدح ، فإن الوزارات تشترك فيها . وكثيراً ما كانت المدارس « تختزن » المجلات التافهة بألوف النسخ التى لا تفض غلافات البريد عنها لهذا السبب . وقد أثرى صحفيون تافهون كثيرون بهذه الوسيلة

ووسيلة أخرى عرفتها الحكومة أيام الحرب الكبرى لافساد الصحف ، هى الورق . فإن مقدار المخزون منه فى البلاد كان محدوداً ومقدار ما كان يرد الينا من الأقطار الأجنبية كان أيضاً محدوداً . وتعللت الحكومات بهاتين العلتين وتدخلت لتوزيع الورق « بالعدل » . وكان من هذا العدل أن عومل الموالون الخاضعون بالسخاء وعومل المعارضون بالتقتير . ويعرف الصحفيون فى أيامنا كيف اقتنى بعض الصحفيين مئات الألوف من الجنيهات حصلوا عليها ببيع الورق فى السوق السوداء .

وشاع هذا البيع حتى صار فضيحة مكشوفة ، وحتى صار كثيرون من

الصحفيين تجاراً، يحصلون على ورق الصحف فيبيعونه لاصحاب المكتبات الذين كانوا يحتاجون اليه لطبع الكتب

وألف المرحوم أمين عثمان الوزير الوفدى جمعية «للصداقة» الانجليزية المصرية كان شعارها أننا نحن المصريين قد تزوجنا الأمة الأنجليزية زاوجا كاثوليكيا لا تفصم عراه . وكان كل من ينضم الى هذه الجمعية من الصحفيين يجد أجود الورق بأرخص الاثمان . بشرط الابقاء على الزواج الكاثوليكى

ولا أكاد أتخيل صورة أفظع من هذه الصورة فى افساد الصحف المصرية . وقد فسدت . أو فسد الكثير منها . كما يدل على ذلك هذا الحادث التالى :

ذات يوم دعانى أحد أصحاب الصحف . فلما قعدت اليه ، وأخذنا فى الحديث ، فهمت أنه يرغب فى أن أتولى رياسة التحرير . وشرع يثنى على كثيراً . ولم يكن عندى ما يمنع من قبول هذا العرض . وجعلنا نتحدث قرابة الساعة عن وجوه الاصلاح فى الصحيفة . ونتناولها صفحة بعد اخرى بالنقد والاقتراح هنا وهناك . ونقترح أسماء لمحررين نحتاج اليهم . وانتهى اجتماعنا بأن أفهمنى بأنه سيكالمنى بالتليفون فى اليوم التالى . وودعته وخرجت

ومضت أيام لم يكالمنى فيها . ولم يعتذر . وصادف لقائى لأحد الوزراء وكانت له به علاقة متينة ، فشكوت اليه هذه المعاملة التى يخصنى بها . فكان جوابه السريع الصريح : « اسمع يا أستاذ . فلان هذا لا يوظف محرراً فى صحيفته إلا بعد استئذان السراى . وأنت تعرف رأى السراى

عنك . فلا بد أنه استشارهم فأشاروا عليه بألا يجعل لك صلة بصحيفته ، ولا أنسى أن أقول أن هذه الصحيفة كانت وقتئذ تفهم الجمهور أنها معارضة للسراى ...

وكان منصب « مدير المطبوعات » من المناصب العليا فى الدولة . ولكن الحكومة الفاسدة كثيراً ما كانت تعين أفسد الناس وأجهلهم لهذا المنصب . لانها كانت تخشى الرجل المستقل النزيه المثقف الذى قد يأنف مما يطلب منه من اتباع خطط سافلة مؤذية للجمهور أو للصحفيين . وأذكر أنى قصدت ذات يوم الى واحد من مديرى هذه الادارة لشأن صحفى ، فلما هممت بالدخول الى غرفته منعنى سكرتيره وأفهمنى أن هناك مسائل خطيرة جداً يشتغل بها مدير المطبوعات ، وأنى يمكننى أن أنتظر حتى ينتهى منها

وقعدت مع السكرتير . وطال انتظارى ، فسئمت ، وأخذت استفسر منه عن هذه المسائل « الخطيرة » التى يشتغل بها مدير المطبوعات الذى كنت قد خبرته من قبل ووجدت فيه أتفه رجل عرفت

ولكن السكرتير رفض أن يبوح . وعندئذ لم اباله ، وهممت إلى الباب واقتحمته . فماذا وجدت ؟

وجدت مدير المطبوعات هذا ، الذى يشرف على الصحف ، ويوجه الرأى العام ، ويطلب انذار صحيفة والغاء أخرى ، ويقدم الصحفيين للنيابة العامة ، ويعين مقدار الاعلانات والمصروفات السرية ، وجدت هذا المدير قاعداً وأمامه عراف مشهور فى القاهرة بأنه يرى الحظ ويتكهن

عن المستقبل عن طريق النجوم والودع . وكان الموضوع الذى حضر من أجله هو أن يخبر المدير عن التاريخ الذى ستقال فيه الوزارة أو تستقيل حتى يتهيأ بخطط معينة للوزارة القادمة

هذا بعض مما لاقاه الصحفيون من فساد الحكم أيام الوزارات التى سبقت الثورة

الإعلانات فى الصحف

ليس شك فى أن الاعلانات التجارية والصناعية والترويحية تنفع القراء وترشدهم . فان ربة البيت تعرف منها مايجد من المخترعات التى تخفف الاعباء المنزلية . كما يجد جمهور القراء فيها دليلا عن المسارح والدور السينمائية ونحوها . وهذا غير مايجده كل منا بشأن لباسه وطعامه وسكناه وسائر حاجاته

والاعلانات ، من زاوية أخرى ، تخدم الروح وتزيد الاستهلاك فلا تركد حركة الأسواق

ثم هى بعد ذلك ، تصل بين الصحيفة وبين حركات الانتاج فى شتى السلع . فهى من هذه الزاوية ، تنطوى على عوامل تنويرية لمحررى الصحف أنفسهم لأنها تدلهم على الأحوال الاقتصادية المتغيرة المتطورة

وفى نظام انتاجى ، مثل نظامنا الحاضر يقوم على المباراة ، تحتاج المتاجر إلى الاعلان . وأقرب الوسائل إلى ذلك هو الصحيفة . ولذلك أصبحت الاعلانات أعظم الموارد لحياة الصحيفة ، حتى لقد عرف أحد المتهكمين الصحف ، جرائد ومجلات ، بأنها « أوراق » قد كتبت عليها أعلانات وفى ظهر هذه الاعلانات أخبار

وعندما تتصفح إحدى جرائدنا الكبرى ، مثل الجمهورية أو الاخبار أو الأهرام أو الشعب ، غير المجلات الأسبوعية العديدة ، نجد أن مقدار الورق ، أحياناً ، يزيد ثمنه على الثمن الذى تباع به الجريدة أو المجلة . وعلة ذلك هى الاعلانات . لأن قيمة الاعلان تعوض الدار الصحفية وتجعل الخسارة فى ثمن الورق كسبا فى قيمة الاعلان

ونحن القراء نضيق أحياناً بكثرة الاعلانات . ولكن الجريدة التى تبلغ صفحاتها ١٦ أو ٢٠ صفحة لايمكن أن تباع بأثمانها الحاضرة لولا هذه الاعلانات العديدة التى تسد النقص فى أبواب أخرى من نفقات الصحيفة

وقد حاول أحد الصحفيين الأمريكيين أن يتحدى القواعد الصحفية فى الولايات المتحدة فأصدر صحيفة فى واشنطن كان يبلغ عدد صفحاتها ١٦ (فى نصف قطع جرائدنا اليومية) . فلم يعتمد فى عدد واحد على سطر من الاعلانات . ولكنه وقفها بعد أقل من سنتين لوفرة ماخسره فى اصدارها من مال . وصحيح أن الجمهور عند صدورها أقبل عليها ، ولكنه عزف عنها بعـــد ذلك ، لأنه وجد أن الجرائد التى تستعين بالاعلانات تتوسع فى عدد صفحاتها وتزيد من أخبارها وسائر مرافقها وخدماتها الصحفية أكثر مما تستطيع جريدة بلا اعلانات

وللاعلانات ، فى نظامنا القائم ، قيمة تنويرية كبيرة لاتقل أحياناً عما تنشره الصحيفة من أخبار أو مقالات . فان الشركة الجديدة ، فى تجارة أو صناعة ، تحتاج إلى شرح أعمالها القادمة . وهى لاتنتظر الخدمة المجانية من الصحيفة فى هذا الشرح . ولذلك تقوم هى بنشره اعلانا

أو اعلانات متكررة حتى يقف الجمهور على مشروعاتها ويقدم على شراء أسهمها . وكثيراً ماتظهر هذه الاعلانات فى صيغة مقالات والجمهور يستنير بهذه الاعلانات والشركة تنتفع

وقد يقال هنا أن الشركة أو المؤسسة التجارية أو الصناعية التى تغزو إحدى الصحف بإعلاناتها تستطيع أن تؤثر فى سياستها وتهددها بالحرمان إذا هى أقدمت على انتقادها بما يؤدى إلى ايذائها ماليا

واعتقادنا أن هذا صحيح ، وقد مرت بى اختبارات صحفية من هذا النوع . فإنى أذكر أن إحدى البواخر ارتطمت ، وكان عليها مسافرون مصريون . وتسلمت الخبر بالانجليزية من إحدى شركات الاخبار . وترجمته . ولكن بعد أقل من عشر دقائق جاءنا رسول من مكتب الشركة التى تملك هذه الباخرة وطلب أن نمتنع عن النشر ، وكان التهديد المضمر أننا إذا نشرنا الخبر أسأنا إلى سمعة الشركة . وعندئذ تقطع اعلاناتها عن الجريدة التى كنت أعمل فيها محرراً ومترجماً . وامتنعت الجريدة عن النشر خاضعة ذليلة . بل حدث ماهو أفدح من هذا . فقد كانت هناك شركة تأمين فى التصفية . فرشت الصحف حتى لاتنشر خبر التصفية ، واستطاعت أن تنتهى من التصفية قبل أن تؤدى التزاماتها للمؤمنين عندها . ونستطيع أن نزيد

حدث هذا قبل نحو ثلاثين سنة

وبالطبع هذا الامتناع من الصحيفة عن نشر الحقائق خشية أن تخسر الاعلانات يعد اجراما صحفيا يترفع عنه ويأباه الصحفى الأمين المخلص ..

كما يجب أن تترفع عنه وتأباه الشركة التجارية أيضاً سواء أكانت شركة بواخر أم شركة تأمين

ولكن فى نظامنا الاجتماعى الحاضر مفاسد ، تكاد تكون أصيلة فيه ، وان يكن هناك من الرجال الاشراف من يستطيعون من وقت لآخر أن يستعلوا وأن يأبوا الخضوع لهذه المفاسد

اعتبر مثلا جريدة المقطم . فإننا كلنا يعرف الضرر الفادح الذى أنزلته بالشعب المصرى حين عاشت حياتها وهى تؤيد الاستعمار البريطانى . ولكن كانت لها فضيلة اخرى لا يعرفها الجيل الجديد الذى سمع عنها ولم يراها ، ذلك أنها طيلة سبعين سنة أو أكثر من عمرها رفضت نشر اعلان واحد عن المشروبات الكحولية . وخسرت بالطبع ، بهذا الرفض ، نحو مائة أو مائتى ألف جنيه . ولكنها إرتضت هذا الخسار إلتزاما لمبدئها وهو جحد الخمور

وشبيه بذلك أيضاً ما حدث فى أيامنا . ففى ١٩٥٣ كتبت الصحف بشأن احداث التدخين لسرطان الرئة . وكان الأطباء الذين يصدرون مجلة « بريتش مديكال جيرنال » قد بحثوا هذا الموضوع واقتنعوا بصحته . فأعلنوا فى يناير من ١٩٥٤ أنهم يرفضون نشر الاعلانات عن السجاير ، مع أن أقل ما كانت تحصل عليه هذه المجلة الطبية من هذه الاعلانات لم يكن لينقص عن خمسة أو عشرة آلاف جنيه فى السنة

ان لبعض الصحفيين اخلاقا عالية

وأعود فأكرر القول بأن نظامنا الاقتصادى الحاضرة ، نظام المباراة ، يحتاج إلى الاعلانات ، وربما لا يستطيع البقاء بدونها . ولكن ، فى

نظام آخر ، مثل روسيا ، ليست هناك حاجة إلى اعلانات فى الصحف . ولذلك تصدر جميع جرائدها ومجلاتها بلا اعلان واحد . ونظامها الاقتصادى لايحتاج إلى ذلك . فان أحد الأسس الذى تنهض عليه فكرة الاعلان هى أن « سلعتى أفضل وأرخص من السلع التى يبيعها غيرى »

وليست هناك مباراة فى البيع فى روسيا . وإذن لاحاجة إلى الاعلانات . وقد ذكرت مثالين عن اساءة الاستعمال فى الاعلانات ، وهما مثال شركة التأمين ومثال شركة البواخر ، ولكن فى ظنى بل يقينى أن أعظم من أساء الاستعمال للاعلانات فى الصحف هو الحكومة المصرية فى عهدها اللعين البائد أيام الوزارات الاقطاعية

فقد كانت الاعلانات توزع على الصحف المصرية ، لا للانتفاع بانتشارها حتى تصل إلى المحتاجين اليها فيعرف منها المقاول مثلا أخبار المزايدة أو المناقصة أو نحو ذلك ، وانما كانت توزع بالمحاباة الصريحة بحيث تعود هدية أو رشوة من أحد الوزراء لأحد الصحفيين فحسب . أما خدمةالدولة فىمصالحها المالية فلا شأن لها أى شأن فى نظر الوزير . بل كانت هناك مجلات اسبوعية لايتكلف اصدار العدد الواحد منها خمسين قرشا يحمل من الاعلانات الحكوميةما كانت تبلغ قيمته عشرين جنيها أو أكثر

وبعض الجرائد ، فى بعض الأحيان ، يزيد ثمن الورق الذى تطبع به على ثمنه وهو جريدة مطبوعة . بل يزيد أضعافا فى بعض الأحيان . وانما يحصل أصحاب الجريدة على الربح من الأجور العالية للاعلانات

بل يحدث أكثر من ذلك . فان بعض المصانع والمتاجر والمؤسسات المالية تؤسس الجرائد وتغذوها بالمال حتى تنتشر . ويكون القصد خدمة هذه المصانع والمتاجر والمؤسسات . وإلى الآن لا أعرف مثل هذه الحالات ، لحسن الحظ ، فى مصر . ولا ينتظر أن يحدث مثل ذلك فى مصر إلى سنين عديدة قادمة . فان رأس المال ، فى اوربا وأمريكا ، من القوة والحيلة والدراية بحيث تمتد شباكه إلى الصحف فيستغلها . ولكنه لا يزال ضعيفا فى مصر

وقد قلت أن الاعلان كثيراً مايؤدى إلى التنوير ، خاصة إذا كان بشأن مشروع جديد يحتاج إلى الدعاية . ولكنى أعتقد أن الاعلانات فى مجموعها تنتهى إلى التغرير وليس إلى التنوير ، وان تكن مع ذلك ضرورية فى نظام المباراة الذى نعيش فيه . ولو أن حكومة ما ، من حكومات رأس المال ، حزمت رأيها ومنعت الاعلانات فى الصحف لكانت شكوى القراء أكبر من شكوى أصحاب رأس المال . إذ ليس لنا طريق إلى الوقوف على السلعة التى نريد شراءها غير الجريدة والمجلة فى الوقت الحاضر

ولعل من المفيد أن نقول أن تدريس فن الاعلان يلقى فى بعض الجامعات اهتماما أكبر من تدريس فن الصحافة . وهذا معقول ، إذ هو يتفق ونظام مجتمعنا القائم على المباراة فى التجارة والصناعة

الأسلوب فى الصحافة

حين أعود بذاكرتى الى الستين سنة الماضية فى حياتى ، أى منذ شرعت أقرأ وألتفت الى الصحف ، أجد أن الاسلوب السهل المنير ، الذى وصلنا اليه فى الكتابة بلغتنا العربية ، لا يعود الفضل فيه الى معاهى اللغة فى المدارس ، بل لا يعود الفضل فيه حتى الى الكتاب « الادباء » القدامى ، وإنما الفضل فى هذا الاسلوب يعود الى الصحف

ذلك أنها ، لإضطرارها الى السرعة فى ايراد الخبر ، احتاجت الى أن تختار من الكلمات والعبارات ما تسهل كتابته وقراءته معا . اذ لم يكن يتسع الوقت للمخبر أو المحرر أن يتظرف بكلمات السجع أو المجاز أو أن يتبختر بالعبارات الموسيقية المزيفة التى كان يعتقد أنها فنية

وربما كان خير من ألف بأسلوب عربى سهل ، فى غير الصحافة ، هو قاسم أمين . وإن كنت أنا أعد مؤلفاته من الصحافة ، اذ هى جميعها تعالج مشكلاتنا المصرية العصرية . ويليه لطفى السيد فى الاسلوب الدقيق المحكم

وصحفنا تكتب هذه الايام بلغة شعبية . ولو شئت أن أعين شخصا

كان له فضل هذا التوجيه لقلت أنه محمد التابعى . فانه هو الذى اخترع لنا « الخبر المقالى » أو « المقالة الخبرية » فاحتاج الى أن يجعل الكتابة أقرب ما تكون الى الكلام . فأحدث اسلوبا يغرى بالقراءة . وزاد عدد القراء للصحف

وليس معنى هذا أنها ابتذلت فى اسلوبها وأخبارها حتى صارت عامية . وانما هى جذبت ، بسهولة الاسلوب الكتابى الذى إتبعته وطريقة ايراد الخبر ، والتنويع فى وسائل الامتاع الصحفى بالصورة الفوتوغرافية والصورة الكاريكاتورية ، والعناية بالاخبار النائية ، جذبت فريقا من القراء لم يكونوا يعنون قبل صدورها بالسياسة العالمية والاخبار الصحفية . فكانت لهم بمثابة المدرسة التى شغلتهم بثقافة جديدة ترفعهم عن اللهو الرخيص الذى كانوا يمارسونه حين لم يكونوا يجدون ما يجذب من الصحف

وليس هذا نزولا الى العامة وانما هو رفع العامة الى مستوى الشعب

ونحن جميعاً شعبيون . نطالب الحكومة بأن تكون شعبية كما نطالب بتعليم الشعب كله . بل نطالب بأن يكون الشعب هو صاحب الكلمة العليا فى تقرير السياسة الداخلية أو الخارجية

ولذلك يجب علينا نحن الصحفيين أن نتحمل مسئولية تنوير الشعب . وأولى الوسائل لهذا التنوير أن نكتب بلغة يفهمها الشعب ، لغة سهلة نبلغ بها المعنى العميق دون أن نحتاج الى الغريب الحوشى من الكلمات التى تصد القارىء

وقد كانت صحفنا ، أيام اللواء والمؤيد ، تكتب بلغة تعلو أحيانا

على فهم أفراد الشعب . ولكن السرعة ، التى تطبع الصحافة بطابعها ، جعلت الكتاب كما قلنا يكتبون كما يتحدثون . فكان هناك اتجاه يقوى عاما بعد عام نحو أسلوب شعبي انتقل بعد ذلك من الصحافة الى الادب

والصحفى العظيم ، كما أحب أن أكرر القول ، هو ذلك الذى يرفع الصحافة الى الادب . إذ أن الصحافة يمكن فى اعتبارات عديدة أن تعد من الادب . وهى واقعية شعبية بطبيعة أهدافها ووسائلها . ولا يكاد يوجد أديب فى مصر لم يعمل فى الاثنين : الادب والصحافة

ولكن كما أن عندنا أدباء غير شعبيين يحبون « الصعب » من الاساوب ، ويبحثون عن موضوع لدراستهم فى مجتمعات نائية فى التاريخ غير مجتمعنا ، كذلك كان عندنا كتاب صحفيون يحاولون أن يكتبوا بأسلوب «صعب» وكأنهم ينظرون الى الصحيفة كما لو كانت مقصورة على الخاصة دون الشعب

وقد استطاع محررو الصحف أن يهتدوا الى اسلوب شعبي ، لا هو عامى ولا خاص ، يفهمه جمهور الشعب ويغريه بالقراءة اليومية

وهذا التوخى للسهولة هو أيضاً الذى بعث الى ايجاد الالوان المبسطة للعلوم والآداب والشئون النسوية . بل ان الاطفال أيضا قد وجدوا نصيبا فى هذا التبسيط

وهناك قاعدة يجب ألا ننساها . هى أننا نكتب وفق ما نشأنا عليه من اتجاه أخلاقى ، وأيضا وفق الاحوال السيكلوجية التى تكون بها ونسير فى تياراتها . فاذا كنا من الشعب ، نكتب للشعب ، فانه لامفر من أن نكتب بلغته . ولكن ليس معنى هذا أننا نكتب بالعامية ، لان

الكاتب فنان قبل كل شيء ، والعامية تخلوا من الفن

والكاتب الذى يلتزم أسلوب الجاحظ أو ابن المقفع من الكتاب القدامى يحيا فى مناخ قديم . ولذلك أيضا تجد أن أهواءه وأغراضه تنأى عن الشعب . بل هو حين يؤلف كتابا يتخذ موضوعا من موضوعات القدماء التى لا تمت الى الشعب . وهو ينعت هذه الموضوعات بانها « ثقافة »

والثقافة عند هؤلاء الكتاب أن تهتم بثورة الخوارج على الخلفاء وتؤلف عنها ، ولكن لا تهتم بثورة مصر ، بل ثوراتها ، ولا تبالى أن تكتب عنها شيئاً . وعندما تكتب عن الخوارج فانك تتخذ الاسلوب الذى فى هذا المناخ النائى عنا

وقد كان هذا حال صحفنا قبل نحو ثلاثين سنة حين كنا نجد فيها أبحاثا ودراسات عن مشا كل تاريخية قديمة . أما مشا كلنا نحن فلم يكن هؤلاء الكتاب يعنون بها أقل عناية . بل كانوا حين يكلفون كتابة مقال افتتاحى ، يتجهون فى عناية خاصة إلى اتخاذ اسلوب قديم يتميزون به ، كأنهم يأنفون لغة الشعب واهتمامات الشعب

* * *

لقد قرأت اللواء والمؤيد وأنا طالب فى المدارس الثانوية . وعرفت المقال يكتب مسهبا بلغة عكاظية فى نحو خمسة أو ستة أعمدة . والخبر ينشر بلا عنوان . وأحداث الدنيا تنحى فى زاوية تحت عنوان واحد وهو : تلغرافات خارجية . ولا تزيد على ربع عمود

ثم جاءت ثورة ١٩١٩ فأ كسبت الشباب أهدافا . وارتفعت بهم

الى معان جديدة من الفهم وبسطت أمامهم آفاقا . وظهرت صحف تغذوهم وتحاول إشباعهم بالصورة والخبر والمقال

ولكن الصحف المصرية التى تعدالسياسةموضوعهاالاول إصطدمت بالسياسة ، فلم تكن ترفع رأسها وتشهر أقلامها لمكافحة الاستعمار أو الاستبداد حتى كان المستعمرون والمستبدون يسددون اليها سهامهم القاتلة . وقتلوا عشرات من الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . وما هو أن كانت الحكومات الماضية تعرف فى احدى هذه الصحف نزعة قومية أو تطرفا وطنيا حتى كانت تتعقبها هى ومحرريها الى أن تقتلهم جميعا

فقتلت جرائد الحزب الوطنى كلها . وقتلت « الاخبار » التى كان يحررها الرجل الامين أمين الرافعى . ولا أنسى أنه عطلت لى فى سنة واحدة هى سنة ١٩٣٠ اثنتا عشرة مجلة اسبوعية . وعطلت جرائد المرحوم عبد القادر حمزة جملة مرات . وأصدرت قوانين جعلت احتراف الصحافة يشبه احتراف الجريمة فى نظر القضاء

ومرت على مصر سنوات سود لم يكن يظهر فيها من الصحف سوى تلك التى كانت تنحنى رءوس أصحابها ومحرريها. وكاد الصحفى المصرى يلغى من الوجود ، إذ هو متهم على الدوام بتهمة الوطنية

ولكن رويداً رويداً تغيرت الدنيا، دنيا الصحافة فى مصر، ورويداً رويداً رأينا شبابا جديداً يأخذ بألوان من النشاط الصحفى لم نعرف مثله قبل ١٩٣٠ و ١٩٤٠ . وحرث الاستاذ التابعى حقلا

بالخبر المقالى أو المقال الخبرى ، وبالصورة الـكاريسكاتورية التى ليس لها عنوان ، ولـكنها تنطق بل تصرخ بالمعنى أو تطعن ضحيتهـا كما لو كانت سكينـا . ثم جـاء بعده ، ونقل عنه ، من زرعوا هذه الارض المحروثة

رذيلة صحفية : تملق الجماهير

يقرأ أفراد الجمهور الصحف كي يستنيروا بالأخبار ويسترشدوا بالمقالات ويستمتعوا بالصور والطرف. فالصحيفة ارشاد وتربية وإمتاع

ولكن إذا كانت الصحيفة تعمد إلى التضليل بدلا من الإرشاد ، فان حقها في البقاء يسقط . ويجب أن تجد الصدود الذى يؤدى إلى سقوطها

والصحافة فى يد الكاتب الصحفى العظيم ترتفع إلى مقام الأدب ، بحيث تهدف فى أخبارها ومقالاتها وسائر وسائلها إلى الانسانية . فلاتدعو إلى البغض ، ولا تحرك حوافز الحرب ، ولا تقول بتعصب عنصرى أو دينى ، ولا تغرى القراء بمخاطبة غرائزهم السفلى

ولكن هناك رذائل كثيراً مايقع فيها الصحفى أو بالأحرى ينزلق اليها . فانه ، لحرصه على أن يصل إلى أكبر عدد من القراء ، يميل بسليقته الصحفية إلى أن يقول مايرضيهم ويتجنب مايكرهون من الأخبار . بل هو قد يسرف فى هذا الاتجاه حتى ليتملق الجماهير ، فيطبخ الأخبار الكاذبة وينشرها كما لو كانت حقائق . وهنا الضرر العظيم

وبكلمة أخرى نقول أن هذا الصحفى ، بدلا من أن يربى الجماهير ، ويرتفع بهم ، ويصلح نفوسهم ويرشدهم ، بدلا من هذا يعمد إلى تملقهم ويكذب عليهم ويضللهم

وقد رأينا كثيراً من هذا التضليل فى الصحف المصرية فى السنوات القليلة الماضية . فأنى مازلت أذكر تلك الأضاليل التى كانت تنشر على القراء فى صحف يومية كبيرة بشأن الحرب بين ايطاليا واثيوبيا قبل الحرب الكبرى الثانية . فإن بعض الصحفيين أحسوا بأن جمهورنا يستنكر العدوان الايطالى ، أيام موسولينى ، على هذه الدولة الصغيرة . وكان بالطبع يحزن لكل خبر يصدم احساسه وحبه لأثيوبيا . وعندئذ شرعت بعض الصحف تغذو هذا الاحساس بأكاذيب مخترعه تقول فيها أن الاثيوبيين قد هزموا الايطاليين . وأن عدد القتلى من الايطاليين يعد بالمئات والالوف بينما عدد القتلى من الأثيوبيين لايزيد على الآحاد والعشرات

وكان القراء المساكين يصدقون هذا القول وينخدعون

وبالطبع كان هناك من القراء من يعرفون أن دولة عصرية ، بل فاشية حربية ، مثل ايطاليا ، لها من الطائرات والدبابات ووسائل النقل والقنابل والجنود المنظمين ، لايمكن أن تنهزم أمام دولة بدائية لاتزال تفهم الشجاعة والانتصار على أنها يقتضيان المهارة فى الفروسية ، كما كانت الحال فى اثيوبيا حوالى ١٩٣٦ ، حتى ولو كانت اثيوبيا على حق وايطاليا على باطل . ثم جاءت النهاية المحزنة بالهزيمة المنكرة التى أدهشت القراء الواهمين المخدوعين . وكان يجب على هذه الصحف ،

التي تملقت الجماهير وخادعتها ، أن تصرح بالحقائق ، وأن تنذر وتحذر ، وتوضح العبرة لنا من الهجوم الايطالى على اثيوبيا . وأعظم العبر لنا فى مصر من هذه الحرب أن الشجاعة والوطنية والفروسية والتضحية ليست لها قيمة كبيرة ، فى الحروب العصرية ، ازاء الاستعداد بالطائرات والدبابات والمدافع والأساطيل وإيجاد المصانع التى تصنع هذه الأسلحة والاعتدة ، بحيث لاتحتاج الدولة المحاربة إلى أن « تتسول » وتتضرع فى أسواق العالم كى تشترى ماتحتاج اليه منها . وقد تتعرض للرفض

وحدث بعد ذلك شيء قريب من هذا ، ولكنه كان أكبر خطورة علينا . ذلك أننا فى عام ١٩٤٨ ، عندما دفعنا فاروق المجرم إلى حرب فلسطين بلا أدنى استعداد ، ودون أن يستشير حتى وزراء الدولة وقتئذ ، ولانذكر البرلمان . وعندما انهزمنا فى هذه الحرب ، بقيت الصحف توهم الجمهور أننا منتصرون . واتفقت على أن تصف اسرائيل بأنها الدولة « المزعومة » . أى أنها بدلا من أن تصارح الجمهور بالحقائق ، وأن توضح لنا أننا انهزمنا لأننا كنا غير مستعدين للحرب ، وأن فاروق وطغمته الفاسقة كانت تتجر بالأسلحة الفاسدة وتسلمها لأبنائنا فيقتلون ، أصرت على أن توهم الجمهور بأننا انتصرنا

أعان فاروق الحرب على اسرائيل دون أن يستشير الوزراء أو البرلمان . وكان هذا الاجراء وحده يكفى لخلعه أو محاكمته والحكم عليه بالاعدام . فقد زج بنا هذا الوغد فى حرب ونحن على غير استعداد. وانما كنا على غير استعداد لأنه هو ، أى فاروق وطغمته ، كانوا يتجرون بشراء الأسلحة الفاسدة ويفسقون . وكانوا مطمئنين إلى هذا

السلوك لأنهم لم يجدوا الصحفيين أو الكتاب الذين يجرؤون على أن يقولوا لهم : قفوا . بل أكثر من ذلك ، فان فاروق وجد كتاباً وأدباء يمدحونه ويرفعونه إلى السماء

هذه الرذيلة ، رذيلة الصحفي أو الكاتب حين يخدع الجمهور ويكذب عليه ويضلله ، هي أسوأ الرذائل الصحفية والأدبية . لأن الصحافة تغدو عندئذ وسيلة لنشر الأوهام والجهالات بدلا من نشر المعارف والأخبار

وقد عادت الصحف المصرية ، وأعني بعضها ، إلى مثل هذه الأكاذيب في معركة القنال ، حين شرعنا نضيق على الانجليز المحتلين حتى نضطرهم إلى الجلاء عن بلادنا . ولم نكن في حاجة إلى أن نخترع الأكاذيب . فان الشعب أبدى من الشجاعة ما يتجاوز الوصف . ولو أن الانجليز كانوا يقتلون منا عشرة أو مائة ازاء جندي انجليزي واحد نقتله نحن لكان لنا الفخار والمجد . لأننا كنا عزلا أو نكاد نكون كذلك ازاء قوات قد أعدت ودربت لسفك الدم في كل مكان في هذه الدنيا التي كابدت وماتزال تكابد كوارث الإنسانية في الأمبراطورية البريطانية

فقد نشرت صحيفة يومية كبرى، في ٢١ من نوفمبر من ١٩٥١ ، أن الفدائيين المصريين قتلوا ٨٢ بريطانيا . وكانت كاذبة مضللة . لأن جميع من قتلناهم في معركة القنال في ثلاثة شهور لم يزد على ١١ جنديا

وكتبت هذه الصحيفة نفسها في اليوم التالي ،أي ٢٢ نوفمبر ،تقول أن الفدائيين المصريين قد دربوا الافاعي على الهجوم على الانجليز . بل دربوا القطط

وكان هذا قمة التهتك الذى تبلغه صحيفة فى التضليل بالجمهور . وهو لا يقل عما سبق أن ذكرته الصحف بشأن الجمل الذى فر من مجزر مصر القديمة ومازال يعدو حتى وصل قصر عابدين يستغيث بفاروق . فأغاثه . وأنشأ أحد « الشعراء » من أعضاء مجمع اللغة العربية قصيدة يشيد فيها بعظمة فاروق ويذكر هذا الحادث دليلا ناصعا على هذه العظمة

أى تضليل أكبر من هذا للجمهور المصرى مما كتبه هؤلاء الصحفيون والادباء ؟

وأعجب من هذا كله أنه فى الوقت الذى كان بعض الصحف يشيد بما يقوم به الفدائيون المصريون من ألوان الشجاعة والتضحية فى مكافحة الجنود الانجليز فى القنال ، كان وزير الداخلية فؤاد سراج الدين يلقى القبض عليهم وينقلهم إلى القاهرة ...

لقد كان التضليل عظيما . ودفعنا ثمنه بعد ذلك غاليا . بل غاليا جداً . فى يوم ٢٦ يناير من ١٩٥٢ عندما حرقت مدينة القاهرة

الصحافة المصرية فى نصف قرن

ان أول وجدانى بالصحافة حوالى ١٨٩٧ أو بعد ذلك بقليل .
فقد كان المؤيد واللواء يباعان ويقرأهما الوطنيون ويتحدثون عنهما . كما كان المقطم مقروءاً من طبقة الموظفين المصريين . وكانوا يقرأونه كى يقفوا منه على أخبار الحكومة من مشروعات أو ترقيات أو تنقلات

ولم يكن المؤيد واللواء من صحف الأخبار، إذ كان كلاهما يعتمد على المقالة . أما الخبر فكان له المحل الثانى . وكانت مقالة اللواء نارية تستفز وتستثير الجمهور بشأن الانجليز والاستعمار . فى حين كان المؤيد وقوراً وزينا . ولذلك كان الأقبال على اللواء عظيما من الشبان والطلبة

وربما كان أعظم ماتتهم به الصحف المصرية فى السنين العشر الأولى من هذا القرن تقصيرها فى نشر الأخبار الخارجية ، بحيث كان القراء يجهلون التطورات العالمية ويعجزون عن وضع مشكلة الاستقلال المصرى فى أبعادها العالمية الصحيحة

وإنى لأذكر أنى كلفت التحرير فى اللواء فى سنة ١٩٠٩ ولا أكاد أذكر أنه كان يعاوننا وقتئذ مخبر . إذ كنا كلنا نكتب المقالات . وعلى

كل حال إذا كان هناك فى ذلك الوقت مخبرون فان غيابهم عن ذاكرتى يدل على أنهم كانوا فى مكانة ثانوية لا يلتفت اليهم كثيراً

كما أننا لم نكن نعنى بالأخبار الخارجية . فإن شركة روتر كانت تزودنا ببعض هذه الأخبار فننشر منها نحو ثلث أو نصف عمود . ولا كنا نعنى برسائل يومية مسهبة من طنطا أو كفر الزيات أو اسيوط

وظهرت فى السنين الأولى من هذا القرن مجلة فكاهية تدعى «حمارة منيتى» . وكان موضوعها الأساسى سب الشيخ محمد عبده ، لأنه كان على خلاف مع الخديو عباس باشا . ولكن لم تكن بها صورة كاريكاتورية واحدة . وبقينا أكثر من خمس عشر سنة بلا مجلة كاريكاتورية حتى أخرج المرحوم سليمان فوزى مجلة «الكشكول» وكان موضوعها الأساسى سب سعد زغلول وكبار الوفديين . وهى أولى المجلات التى صورت بالألوان . ولكن اخراجها لم يكن متقنا ذلك الاتقان الذى عهدناه من مجلاتنا المصورة فى السنوات العشر الأخيرة

وفى السنوات الخمس الأولى من هذا القرن كانت الآفاق السياسية والاجتماعية فى المجتمع المصرى مقصورة على التيارات الجديدة التى أوجدها الشيخ محمد عبده فى ضرورة تعميم الروح العصرى فى الأزهر وفى دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة والغاء الحجاب . ثم فى تنبيه الرأى العام إلى مكافحة الانجليز بقلم مصطفى كامل . ولم يكن القارىء يجد موضوعا فى الصحف يكاد يخرج عن الاهتمامات التى كانت تهم هؤلاء الثلاثة . وكان لنا الحق فى ذلك لأن هؤلاء الثلاثة مسوا النفس المصرية فى أعماقها وسكبوا الضوء على مشكلاتها الأساسية

ولكن الوجدان السياسي في ذلك الوقت كان ناقصاً جداً . فان كلا من مصطفى كامل صاحب اللواء وعلى يوسف صاحب المؤيد كان يفهم الاستقلال على أنه أخراج الانجليز مع البقاء داخل السلطنة العثمانية

وكانت رسالة الآستانة أي استامبول تنشر كل يوم تقريبا في المؤيد أو اللواء . بل ان المؤيد حين انشيء البرلمان التركي تسآل . . لماذا لانرسل نواباً مصريين إلى هذا البرلمان؟ وكان هذا حوالى سنة ١٩٠٧ . وكان المقطم نفسه ينشر كل يوم مناقشات البرلمان التركي ويملأ بها صفحته الأولى . وكان لابد اذن من أن يصحح هذا الوجدان السياسي بحيث تتنزه الدعوة إلى الاستقلال من هذا الانحراف نحو الحماية التركية . ولذلك وجد أحمد لطفى السيد اقبالا عظيما من الجمهور المستنير عندما دعا إلى أن تكون مصر للمصريين لا للاتراك ولا للانجليز . ومع أن هذه الدعوة تكاد تكون في وضوحها وصحتها تافهة لاتستحق مناقشة فانها وجدت مكافحة من كثيرين من القراء الذين لم يسمعوا بها قبل ذلك والذين تعودوا على أن مصر جزء من السلطنة العثمانية اغتصبه الانجليز

وكان ظهور « الجريدة » التي أنشأها أحمد لطفى السيد للدفاع عن هذه البديهة في سنة ١٩٠٧ . وقد ربت الرأى العـــام تربية جديدة . وحاولت أن توجد في مصر اتجاها في السياسة والاجتماع يشبه ذلك الاتجاه الذي قام به الحريون في أوربا في القرن التاسع عشر ، أي الحكم الدستوري ونشر التعليم العام وحرية الضمير وسفور المرأة . وهذا المذهب هو وسط بين المحافظين والاشتراكيين

ولكن «الجريدة» ماتت في سنة ١٩١٥ ليس لأنها كان ينقصها القراء

ولكن لأن الأحكام العرفية جعلت بقاءها محالا . وهنا يجب أن أقول أنه من سنة ١٩١٤ إلى الآن خضعت الصحف المصرية للرقابة التي كانت تمنع نشر سطر واحد غير مصدق عليه . ست عشرة سنة كانت فيها سجينة ، بل كان الذكاء المصرى فيها مقيداً ، وذلك فى أثناء الحرب الكبرى الأولى والحرب الكبرى الثانية اللتين خيمت فيهما الأحكام العرفية على بلادنا

وبالطبع لايمكن أن ينتظر للصحافة تطور أو ارتقاء وهى خاضعة للرقابة قد أصلت على رأسها سيف الأحكام العرفية . ولذلك يجب أن تقتطع هذه السنين من عمرها كأنها لم تعش فيها . بل يجب أن تقتطع من عمرنا نحن رجال الذهن . وفى الحرب الأولى الكبرى ظهرت أولى المجلات المصورة ، وهى «اللطائف» للأستاذ اسكندر مكاريوس. وربما كانت هى الأولى فى اتخاذ الفن الصحفى وحده أساساً لنجاح الصحيفة، إذ لم تتخذ دعاية معينة بل كان كل اهتمامها محصوراً فى نشر الأخبار والمقالات المصورة

وأدخل أصحاب «الهلال» آلات الروتوغرافور لأول مرة فى مصر حوالى ١٩٢٣ ، فأحدثوا بذلك نهضة بل وثبة فى الطباعة أدت إلى نهضة عامة فى الصحافة . فان الارتقاء الفنى شرع يجذب اليه جميع الصحفيين . وكان لهذا أثر كبير فى توجيه الصحفى وتكوين ثقافته ،فان المقالة غابت عن أنظار القراء وأخذ مكانها الخبر الساذج أو الخبر المصور . بل ان ألوف القراء الذين جذبتهم هذه المجلات المصورة الجديدة لم يكونوا قبل ذلك من قراء الصحف ولم تكن لهم ألفة بالمناقشات الصحفية

والخصومات السياسية . ولذلك قنعوا من المجلة المصورة بالصور والتافه من الأخبار . وظهرت عقب ذلك صحف الطرائف التى تنشر خبر الرجل الذى يعض الكلب بدلا من الكلب الذى يعض الرجل

وهذا عامل آخر لانستطيع اهماله فإن الدور السينيمائية التى جذبت الوف الأفراد من الشعب ، أميين وعاميين وقارئين ، هذه الدور بما لها من قوة مالية بالاعلان فى الصحف ومن اغراء جنسى لايمكن التغاضى عنه ، هذه الدور السينمائية قد أثرت فى الصحف تطوراً وارتقاء . وقد يكون هناك من يقول عكس ذلك

فان الصحف شرعت تجارى الفن السينمائى بنشر الصور الرائعة للممثلات والتحدث عن التمثيل ، وليس شىء يساعد على نشر المجلة مثل صورة بالروتوغرافور لإحدى الممثلات المحبوبات التى تجمع بين جمال الوجه وبراعة التمثيل

والحق أن اعتماد الصحف على الصورة الجميلة قد جعل الكاتب العظيم فى المكانة الثانوية . بل أصبح الشاب الذى يرشح نفسه للصحافة ويبغى احترامها يقنع بدراسة موجزة ولا يتعب نفسة بالعمق الثقافى . لأنه يعرف أن صاحب المجلة لن يطلبه ولن يكافئه بأكبر الاجر لأنه مثقف وانما لأنه قادر على جذب القراء وبيع أكبر عدد ممكن من المجلة باختيار الصور المشرقة والأخبار المقلقلة

وهنا أستطيع أن أذكر ، للمقارنة ، أن العتبة الأولى التى وضعت قدمى عليها كى أحترف الصحافة كانت مقالا فلسفيا فى المقتطف عن « نيتشه وابن الانسان » فى سنة ١٩٠٩ . وانى واثق أن هناك عشرات من

الصحفيين فى المجلات الأسبوعية المصورة ، بل من رؤساء التحرير لهذه المجلات ، لا يدرون شيئاً عن هذا الموضوع الذى كتبت عنه قبل أربعين سنة وجعلته مدخلا فى الصحافة المصرية

وليس شك فى أن الارتقاء الفنى فى الطباعة بالرتوغرافور قد أحدث اهمالا إلى حد بعيد للتحرير . وقد تقهقرت مجلة المقتطف ، وتغير الهلال من مجلة جديدة لاتبالى أن يبلغ المقال فيها خمس عشرة صفحة من القطع الكبير إلى مجلة مصورة لايزيد المقال فيها على ثلاث أو أربع صفحات . وماتت مجلة المصرى، ومن قبل ذلك ماتت المجلة الجديدة . وكل هذا لأن هذا الاتجاه الذى ذكرت بشأن الارتقاء الفنى قد جعل العناية بالتحرير الذى لا يتصل بالصورة معدوم القيمة . كما أن المقالة قد الغيت أو أوشكت على الالغاء من الميدان الصحفى كله . على أنه تلقاء هذا التقهقر فى التحرير قد تحققت ميزات جديدة للصحافة المصرية غير ما أشرت إليه من الارتقاء الفنى فى الطبع . فمن ذلك مثلا العناية الكبيرة بأنباء العالم . والفضل فى ذلك للحربين الأخيرتين . فإنهما أثارتا الاستطلاع وأصبحت أخبارهما مقدمة على الأخبار الداخلية ، وثبتت من ذلك عادة جديدة عند القراء هى الاهتمام بأخبار العالم . وأصبح الاستقلال أو رقينا السياسى والاجتماعى ينظر اليها فى ضوء هذه الأخبار العالمية . ولم ينقص هذا من روح الكفاح للاستقلال . ولكن الصحيفة القديمة مثل اللواء أو المقطم أو المؤيد قبل سنة ١٩١٠ كانت تعد قروية محلية بالمقارنة إلى جرائدنا اليومية الكبرى هذه الايام

للأشخاص منطقهم الذى يحكمون به على الأشياء والناس . ولكن للحوادث منطقها الذى يتغلب على منطق الأشخاص . هذا هو مايجب أن نذكره حين نتأمل صحافتنا فى الخمسين أو التسين سنة الماضية . فان الصحفى قد ينشىء صحيفة يومية أو اسبوعية . وينوى أحسن النيات . ويعتقد أنه سيجعلها الجريدة أو المجلة المثلى . ولكن لايكاد ينتهى العام الأول من صدورها حتى يجد أن منطق البيع (أى القراء) ومنطق الاعلانات (أى المتاجر) يتغلبان على منطقه هو ، ولن يستطيع الصمود ازاء الخسارة إذا رفض الخضوع لهذين المنطقين الآخرين

ثم هناك الطبقة الجديدة من القراء التى لم تتعلم إلا فى المدارس الابتدائية والالزامية ، كيف نغريها بالقراءة ؟ ان وسيلة ذلك هى الخبر والصورة وليس المقال والارقام . انى عندما أقارن بين اللواء (الذى عملت فيه محرراً سنة ١٩١٠) والمؤيد والجريدة ، وبين جرائدنا الآن، أحس الفارق العظيم فى ارتقاء صحفنا الحاضرة على الرغم من كل ماتوصف به من التجارية والمنفعية

وأعظم ماخدمت به جرائدنا الحاضرة جمهور الشعب عنايتها بالخبر ثم ربطها الخبر بالمقال

فالمقال خبرى والخبر مقالى . وبهذا العمل بعثت بين القراء تنبها جديداً ووعيا للحوادث ماكان ليعرفه جمهورنا قبل نصف قرن . واستنار الشعب بذلك

وظنى أن هذا الاتجاه سيزداد قوة واندفاعا عندما نجد قبل عشر سنوات نحو نصف مليون قارىء للجرائد والمجلات فى مصر . لأن

أربعة أخماس من هؤلاء سيكونون من خريجي المدارس الابتدائية الذين يحتاجون إلى الصورة المغرية والخبر القصير والمقال الموجز المثير.

وعندي أن الصحفي العظيم يجب أن يعرف لغتين أجنبيتين ، وأن يزور نحو عشرة أقطار كبرى ويمكث فيها السنوات للتعلم ولمراسلة الصحف. وأن يتعلم الأدب والعلم والسياسة كما يتعلم كتابة الخبر واستقصاء الخبر . وتحسن صحفنا كل الاحسان إذا بعثت بكتابها ومخبريها كل منهم نحو ستة شهور أو سنة كاملة في قطر أجنبي . بل لماذا لا تتبادل الصحف كتابها ومخبريها كما تتبادل الجامعات ؟

اعتقادي أن الفكرة حسنة ولكننا لم ترتفع اليها بعد

الكفاح فى صحيفة اللواء

أكاد أقول أن كل صحيفة ليس لها كفاح معين تفقد حقها فى البقاء ولست أنكر أن للخبر ، محض الخبر بلا توجيه ، قيمة تربوية كبيرة . ولكن شرور الدنيا كثيرة ، والجريدة التى تقنع بالوقوف منها موقف المحايد المتفرج ،والتى تقنع بايراد الأخبار فحسب ، هذه الجريدة توحى إلى قرائها حياداً ذهنيا وفلسفيا يؤذيهم فى حياتهم ويجعلهم منفصلين من شئون الدنيا ومشكلاتها

فما بالك اذن بصحافة تحايد وتتفرج على مصر وأحداثها فى سنى كورثها ، منذ شرع الانجليز يفتكون بروحها وثروتها ، ومنذ شرع رجال الخديو الخائن توفيق ينتقمون من الوطنيين الذين انضموا إلى زعيم الشعب أحمد عرابى !

وكيف يستطيع مصرى أن يحايد فى شأن الاستقلال ، أو وثبة سنة ١٩٢٥ ، أو وثبة اسماعيل صدقى سنة ١٩٣٠ ، على الدستور ؟ ان معنى الحياد هنا هو الرضى بالاستبداد

والذى نراه فى تاريخ الصحافة فى مصر أن جميع الصحف التى

كالحت المستبدين والمستعمرين ماتت لأنها لم تقو على الحياة ازاء الضغط والظلم والتشريد وسائر المظالم التى عومل بها أصحابها

وأعظم مثال للصحيفة المكافحة فى بلادنا هو اللواء الذى أسسه مصطفى كامل وأشرف على تحريره . وكان اللواء صحيفة ودعاية وكفاحا ، اندغمت حياة صاحبه فيه . وكانت حياة الكفاح لاستقلال الوطن . وكان كفاحاً مراً انتهى بموت مصطفى كامل وهو دون الثانية والثلاثين . وكان موته أقرب الى القتل العنيف منه إلى الموت الهادىء ، لفرط ما كابد من مرارة هذا الكفاح

ظهر اللواء فى ١٩٠٠ فكان منبراً نقرأفيه كل يوم خطبة بقلم مصطفى كامل بشأن الاستقلال . ولم يكن الشعب يقرأ هذه الخطبة اليومية ، وانما كان يتلقنها ، ويتحفظ معانيها ، ويتأمل مستقبله ازاء هذه المعانى . فكان منها بعث الوعى الوطنى

كانت صحيفة اللواء تحث الشعب على المطالبة بالاستقلال : وكانت أيضاً تطالب بالاصلاح داخل البلاد . أنظر إلى مايقول فى عدد ١٦ نوفمبر من ١٩٤٠ بشأن الحكم الدستورى :

« وعندى أن هذه الأدوار المختلفةوالأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد الى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير ارادته . ولا تحور مادة الابمشيئته ، ولا يزعزع نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، والايفان بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد

سواء كان مصريا أو أجنبيا يضر بالبلاد كثيرا ويجر عليها الوبال »

وكتبت تحت عنوان « انشاء مجلس نيابي » في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ماياتي :

« لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ماقلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب انشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر ، لأنه الانشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال . فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة »

إلى أن قال :

« ليس للاحتلال مصلحة في ايجاد مجلس نيابي لهذه البلاد. ولكن صوت الأمة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم ، فلتفعل ، فانما هي تخطو بالوصول اليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال »

وكانت الدعوة إلى الحكم النيابي ، مع احتلال الانجليز لبلادنا ، لا تنقص في قيمتها عن الدعوة إلى الاستقلال . ولذلك وجدت المقاومة من المستعمرين الانجليز ومن المستبدين المصريين بقيادة الخديو

وفى ١٩٠٤ عقد مايسمى « الاتفاق الودى » بين بريطانياوفرنسا: الأولى تقنع بسرقة مصر ، والثانية تقنع بسرقة مراكش ،ولاتتدخل احداهما في شأن ماتسرقه الأخرى من مصر أو مراكش . فكتبت اللواء مئات المقالات لتنبيه الشعب إلى أن ينهض لمكافحة هذا الاتفاق. وفى ١٨ ابريل كتبت اللواء هذه الكلمات التالية التى تعد مثالا لغيرها . فخاطبت الشعب قائلة :

« انظر الى الشعوب التى أصابها ماأصاب شعبك . تجد البولونى وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة « بولونيا » يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها . والفنلندى وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها وهو محو بقية استقلال هذه الأمة والايرلندى وقد عارض انجلترا فى ضغطها على بلاده وسلبها لحقوقه ، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات عن أملاكهم بثمن بخس ورد الأراضى الارلندية الى أصحابها الأصليين . وانظر الى غيرهم وغيرهم ، لتعلم أن الأمم ، كبيرة كانت أو صغيرة ، حاكمة أو محكومة ، لاتسمو فيها الأخلاق والصفات ولاينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير الا بالشعور الوطنى . فكل عامل على اطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه . وكل داع اليه مجد فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد »

وتنبه مصطفى كامل إلى سوء التعليم وفساد توجيهه للشباب ففكر فى انشاء جامعة مستقلة عن الحكومة . وكتب فى اللواء بتاريخ ٢٦ اكتوبر من ١٩٠٤ مقالا فيه :

« مما لايرتاب فيه انسان أن الأمة المصرية أدركت فى الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الامم ، وأبلغ الادلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم ، وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد ، الامة فى أشد الحاجة اليه ، الا وهو انشاء جامعة للأمة بأموال الامة »

وجاءت حادثة دنشواى فى سنة ١٩٠٦ فهبت صحيفة اللواء تناشد الشعب أن يتنبه لهذه المأساة . ولم يكتف عندئذ مصطفى كامل ، الصحفى المكافح الأول فى مصر بجريدة اللواء ، بل سافر إلى اوربا وجعل يخطب وينبه الانجليز والفرنسيين إلى فضائح الحكم البريطانى فى مصر ، وينشر عليهم التفاصيل المسهبة عن التوحش الذى عومل به سكان دنشواى

وكان من أثر هذه الحملات الصحفية والخطابية لمصطفى كامل أن تنبه الشعب إلى وعى وطنى قوى لم يجد الانجليز ازاءه إلا أن يقيلوا كرومر المعتمد البريطانى فى القاهرة . فأقيل فى صورة استقالة

إن حياة جريدة اللواء هى حياة الشرف والتضحية لخدمة الشعب المصرى . بل هى أعظم مثال للصحيفة الهادفة المكافحة

الكفاح فى صحيفة الجريدة

لم يكن مفر من أن تكون صحفنا الأولى ، حين كنا نكافح الاستعمار ، شخصية . إذ لم نكن ننشد فى الصحيفة أخباراً أو فنونا فى الطبع والتصوير ، أو دروساً سياسية عن شئون العالم ، أو شرحا للآداب أو العلوم ، وانما كنا ننشد شيئاً واحداً أصيلا . هو تحرير بلادنا من المستعمر . وماعدا ذلك فقيمته ثانوية

وكان يمكن بالطبع أن تشمل جرائدنا الأولى كل ماتحتويه الصحف الراقية . ولكن الاستعمار لم يترك لصحف الكفاح مجالا للرقى ، إذ كان يتعقبها بالقضايا والمعاكسات الاقتصادية والادارية حتى تفلس . وقد انشىء « قلم المطبوعات » لهذه الغاية المفردة

كنا نقرأ اللواء لشخصية الزعيم الشاب مصطفى كامل . وكنا نقرأ المؤيد لشخصية على يوسف . وكنا نقرأ الجريدة لشخصية أحمد لطفى السيد

وكانت « الجريدة » تكافح فى ثلاث جبهات فيما بين ١٩٠٦ و ١٩١٥

الجبهة الأولى هى مقاومة الاستعمار البريطانى

الجبهة الثانية هى مكافحة الخديو عباس

الجبهة الثالثة ، وهنا أدت الجريدة رسالتها الأولى ، هى مقاومة الرجعية الاجتماعية

وكان لطفى السيد رجلا قد صيغ عقله فى القالب الفلسفى ، يفكر فى احاطة ، وينظر النظرة الاستيعابية لشئون مصر . وكثيراً ما كانت كلماته تحريراً للنفوس من ظلام القرون الماضية . وكان مع جراءته معتدلا فى لهجته . ولذلك وجد الاحترام أكثر مما وجد الغضب من خصومه

والاحترام هو الكلمة اللائقة لإحساس الجمهور نحوه . فانه لم يجد الحب الذى وجده مصطفى كامل حين كان يخاطب قلوبنا ويثير عواطفنا الحامية . ولكنه ، أى لطفى السيد ، وجد الاحترام لأنه كان يخاطب عقولنا الباردة

وليس بين الصحفيين المصريين من جمعت مقالاته بالعناية التى جمعت وطبعت بها مقالات لطفى السيد فى الجريدة . وذلك لانها كتبت بلهجة الاديب وتفكير الفيلسوف ورزانة السياسى وحذر المصلح الاجتماعى

وهأنذا أنقل نماذج من تفكير لطفى السيد وتعبيره عن بعض شئوننا السياسية والاجتماعية . فهو يقول عن عرابى :

« ولولا عرابى لم يكن الدستور . فالدستور المصرى من عمله ومن صنع يده ومن آثار جرأته . طلبه عرابى لا بوصف انه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من الاف من وجهاء الامة ومشايخها . فأما كون القوة العسكرية هى التى

كانت الآلة لتنفيذ ارادة الامة فى ميدان عابدين . فذلك ان لم يكن مشروعا قانونيا فانه مشروع بتقاليد الامم . لانه هكذا جرى في كل بلد من البلاد ، وكان القائدللحركه الدستورية فى كل بلد يحمل على الاكتاف ويهتف باسمه فى الشوارع والنوادى والمجالس ويعتبر أكبر بطل من الابطال . فعرابى حقق امال الامة بالدستور ولم يرتكب فى ذلك جريمة . ولم يسفك دما : بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاما لابسا كسوة حربية

« ولايجوز لنا أن نغمط حق الرجل فى أنالتنا الدستور ، بل يجب علينا أن نردد له شكر ابائنا يوم صدر قانون الانتخاب وقانون مجلس النواب ، فان كانوا بنا لم يستطيعوا حفظ مراكزهم ، أو اذا كانت انكلترا أغلقت المجلس وألغت قانونه يوم دخولها ، فمما لاشك أن ذلك ليس من خطأ عرابى ولا من ذنبه . ومع ذلك اذا كان عرابى فى أخريات الأمر او فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس وضغطه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد ان يحسب له الدستور »

وهو يكتب عن المرأة المصرية حوالى ١٩١٠ فيقول فى شأن

الحجاب والزواج :

« تخطب السيدة المصونة ، والجوهرة المكنونة ، على الطريقة التى نعرفها جميعا لعبة فى علبة . لاتشترط فيها الا ان تروى عنها السيدات المكنونات أيضاماشئن من الجمال الذى لايعرفن له معنى ، الا السمن والبياض والادب الذى لايعرفن لهصورة ، الا غض الطرف ووضع اليدين بانتظام على الركبتين ، كتماثيل سقارة . ثم تنقل هذه الشابة التى عقد عقدها الى بيت زوجها كما تنقل البضاعة التى حصل أتفاق المتعاقدين عليها عقداعاما ،

ليس فيه شرط ولا اختيار عيب ، ولأخيار رؤية. وكأن الازواج في هذه الحال عمي يحبون بالسماع ، ويختارون بالسماع ، ويعولون في سعادتهم الزوجية على السماع . قد تكون الصدفة سعيدة ، فيحصل كلا الزوجين على ما كان يحب ولكن الصدفة أبعد جداً من ان تصلح نظاما عمليا للروابط الاجتماعية ، فانها تسعد مرة ، وتخبث مرارا

« ان هذه السيدة كانت مكنونة في الحجب في دار أبيها ، مكنونة في بيت زوجها ، وجهها عورة يجب ستره ، وصوتها عورة يجب كتمانه ، وملكاتها عورة يجب خنقها تحت الحجاب . واسمها عورة ، وكلها كذلك . ثم يطلب منها بعد ذلك أن تكون انسانا حرا تام الشخصية ، عليه للاجتماع أثقل الواجبات ، وهو واجب تربية البنين والبنات

« يبين لبعض الذين يأخذون بظواهر الأشياء ان السيدة المحجوبة هي موضوع الاحترام والاجلال، او في نظر أبيها وزوجها أكثر احتراما ورعاية من تلك الفلاحة التي لاحجاب عليها . ولكن ذلك خطأ محض . فان الفلاحة ملحوظ فيها أنها انسان أمين على نفسه ، أي انسان تام الخلقة ، له من الحرية ما وهب الله لكل مخلوق ، أما السيدة أو الهانم فانه ملحوظ فيها أنها ليست أمينة على نفسها . لاقوام لها بغير المراقبة الشديدة . أو لاوجود لها الا بصفتها متعلقة بانسان آخر، هو وليها أو زوجها »

وهو يتحدث عن اللغة العربية فيقول :

« ولقد نتج من ذلك أن علماءنا الذين لايعرفون العربية الصحيحة ، قد تقطعت بهم أسباب التأليف بلغتنا . وعدم وسائل ترجمة العلوم المختلفة من اللغة الأجنبية التى تعلموا العلم بها

« ومن نوابغنا فى العلم من كتب آراءه بالفرنساوية دون العربية ، ومن محامينا الفصحاء من اذا جادلته فى مسألة قانونية استسهل ان يخرج لك كثيرا من المعانى لابسة صورتها الفرنساوية بألفاظها الفرنساوية ، كأن المعنى قار فى ذهنه كذلك

« لهذا الاعتبار دعتنا حاجة البيان الى أن نفكر فى غرض مزدوج هو الكلام فى جعل اللغة العربية لغة العلم الحديث فى القرن الحديث . وجعلها فوق ذلك حية متداولة على الألسن . مستعملة يوميا فى الخطب والمرافعات وأحاديث السمر ، بل فى مساومة السلع فى الأسواق

« أننا ندع الى جانب مايتهموننا به من حب القضاء على اللغة العربية ، ومايدعون علينا من أننا نريد احلال اللغة المريضة محل اللغة الصحيحة . ندع ذلك الى جانب ، ونرجو خصومنا أن يرجعوا النظر فيما كتبناه فى جميع فصولنا الماضية فى هذا الموضوع ونبين من جديد هذا الغرض المزدوج

« اللغة العربية لاتكون لغة العلم الا اذا كانت هى لغة التعليم واشتملت على موسوعات العلوم العصرية المختلفة . وقد كان الطريق العادى القريب لذلك هو الترجمة . كذلك بدأت نهضتنا العصرية ولقد قابلت أحد الذين يشتغلون بالترجمة قبل أن أكتب أول مقالة (فى اللغة) وسألته عن حاله ، فأجابنى تلك حال لاتسر ، وصعوبة تكاد لاتتخطى فى ترجمة العلوم الى اللغة العربية

« قلت : لا بأس عليك ، ان فى اللغة العربية كلمات كثيرة ، فاستخدم منها ما شئت لما شئت من المسميات التى ليس لهافى القاموس أسماء . استخدم بعلاقة النسب . قال : فان لم أجد. قلت له : انحت اسما من وظيفة المسمى . قال : فان لم أستطع. قلت : ماعليك الا أن تثبت الاسم الافرنجى فى العربية كما هو

فى اللاتينية أو اليونانية مع المحافظة على موازين اللغة بقدر المستطاع »

* * *

انى أعزو كثيراً من تربيتى الصحفية إلى لطفى السيد . فقد كنت أوالى قراءة مقالاته سواء وأنا فى مصر أو فى انجلترا . وكانت لى بمثابة الكشف الذهنى لمعانى السياسة الوطنية فى مصر

ذلك أن المقطم كانت تؤيد سياسة الانجليز تأييداً تاما . وكانت الأهرام تؤيد سياسة فرنسا وتعارض السياسة البريطانية . وكانت اللواء والمؤيد كلتاهما تعارض الاستعمار ، ولكن مع الزعم بأن مصر جزء من الدولة « العلية » أى العثمانية

وكنت أجد حرجا فى هذا الموقف السياسى . ولم أكن على نضج وفهم بحيث أفهم أن مصطفى كامل باعث الوطنية المصرية انما كان يستند إلى الدولة العثمانية توسلا وحيلة فقط لمكافحة الاستعمار البريطانى ، كما اتضح ذلك فى الشهرين الاخيرين قبل وفاته ، حين حمله ضميره على أن يصارح الأمة . فكتب يقول ، وكرر القول ، بأن مصر نهب لبريطانيا وتركيا معا . وعارضته المؤيد وبختته بقولها : أنه يكتب كما لو كان عرابى . . .

وكان ظهور الجريدة بقيادة لطفى السيد انفصالات صريحا من هذه الخطة التى اتبعتها اللواء والمؤيد . فانها ، فى صراحة لاتشوبها شبهة ، قالت : ان مصر للمصريين وليست لتركيا أو بريطانيا

ومع أن هذا المنطق واضح مقبول فى أيامنا فانه لم يكن كذلك فيما بين ١٩٠٦ و ١٩١٦ . ولذلك وجد لطفى السيد معارضة غير صغيرة ، ليس من الصحف فقط ، بل من الشعب أيضاً . ولكنه وجد تأييداً تاما من الطبقة المثقفة ، كما وجد مثل هذا التأييد من الأقباط الذين لم يكونوا يفهمون معنى لاستقلال ندعو اليه تكون فيه السلطة المشرفة على البلاد سلطة الاتراك

وهنا فضل لا ينسى إلى جنب أفضال كثيرة للطفى السيد على الصحافة المصرية . إذ ليس شك أنه المجدد الأول فى الوطنية كما هو المجدد الأول فى الصحافة المصرية

كفاحى فى الصحافة

سأكتب هذا الفصل لا على أنى رجل خطير فى الصحافة المصرية، بل للتمثيل على عدد كبير من الصحفيين الذين هدفوا من الصحافة إلى الكفاح . فخدموا الشعب ، وعودوه الفكرة والأسلوب والهدف فى مكافحة الاستعمار الأجنبي والاستبداد الداخلي . وإذا كنت أكتب عن نفسى بدلا من أن أكتب عنهم فلأنى أعرف نفسى أكثر . وليس لأنى خدمت أكثر

فى ١٩١٤ أنشأت أولى المجلات الأسبوعية فى مصر ، وهى مجلة «المستقبل» . وكنت فى بداية العقد الثالث من عمرى قد أسكرتني الحضارة الأوربية كما شاهدتها واختبرتها فى عواصم أوربا . فدعوت ، فى وجه المعارضة الاجتماعية قبل المعارضة الحكومية ، إلى الأخذ بالآراء العصرية والحريات العصرية . وعطلت مجلة المستقبل فى بداية الحرب الكبرى الأولى

ثم عملت محرراً فى مجلات دار الهلال وجريدة البلاغ . وكانت دعوتي ، كما هي الآن ، الأخذ بالعلوم العصرية ، والصناعات العصرية،

كما يتضح ذلك من الكتب التى ألفتها فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ مثل: « مختارات سلامة موسى » و « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « اليوم والغد » و « العقل الباطن » الخ . وجميعها تصطبغ بالصبغة العلمية وتهدف إلى التغير الفكرى . كما أن معظمها كان قد نشر مقالات مستقلة فى الجرائد والمجلات التى عملت فيها

وفى أواخر ١٩٣٠ أخرجت مجلتين ، أحدهما شهرية وهى « المجلة الجديدة » والأخرى أسبوعيةوهى «المصرى ». ولم تكد تظهر الأعداد الأولى حتى كانت الانقلابات التى دبرها اسماعيل صدقى بشأن الغاء الدستور باملاء فؤاد الملكوقتئذ . وكان هذا الأخير،لجهله وفسادذهنه، يعتقد أن من حقه أن يحكم مصر حكما منفرداً لاشأن للأمة فيه

وكان وراء هذه الحركة الاستعمار . الذى أراد معاقبة الوفد ، الهيئة الوطنية المتماسكة الوحيدةوقتئذ ، لأنه رفض عقد معاهدة ترسخ أقدام الانجليز فى بلادنا ؛ وعندئذ وجدتنى فى غمرة كفاح عنيد ضد ثلاثة أعداء . هم :

المستبدون : فؤاد واسماعيل صدقى ومن انضم اليهما

المستعمرون : الانجليز

الرجعيون : الذين لايأخذون بالآراء العصرية ولا يدركون قيمه الصناعات العصرية التى هى علة التفـــوق الأوربى على الشرقيين ، ولاعلة غيرها

فأما المستبدون فقد كافحتهم على صفحات المصرى كفاحا مريراً . ثم بعد تعطيل المصرى ثابرت على الكفاح فى نحو اثنتى عشرة مجلةاسبوعية

كنا نستأجرها من أصحابها ونصدرها فى صورة مجلة « المصرى » ورسمه ، إلى أن أصدر اسماعيل صدقى قانونا جديداً للصحافة وقفنا عن هذا النشاط . وذلك فى ١٩٣١

وأذكر أنى كتبت فى مجلة « المصرى » بتاريخ ٤ ديسمبر مقالا افتتاحيا بعنوان « تربية الملوك » يفهم منه القارىء أنه موجه إلى « فؤاد » الملك وقتئذ ، وصفت فيه الخديو اسماعيل ثم الخديو توفيق بأنهما كانت تنقصهما التربية . وبرهان ذلك أن الأول عمد إلى خمسة أوستة من المجرمين ، الذين لم تستطع محكمة اثبات ما اتهموا به ، فدس لهم السم فى السجن . فماتوا

وذكرت توفيق بأنه كان يقف على سطح قصره بالاسكندرية ليرى ضرب الانجليز للاسكندرية . فكان يفرح ويهلل كلما أصابت إحدى قنابل اسطولهم منازل المدينة . واليك بعض الكلمات التى وردت بالمقال :

« ... وقد رأينا فى تاريخنا الماضى كيف أن توفيق باشا اثر دخول الانجليز مصر وخيانة الوطن على أن يقسر نفسه أو يذللها للروح الدستورية ويخضع لمجلس النواب الذى اختارته الأمة . ولو أن هذا الرجل كانت قد أحسنت تربيته منذ الصغر ، وانشاه أبوه على الاقلاع عن طبيعة الاستبداد ، والتطبع بالروح الدستورية ،لما جنينا كل هذا الذى جنيناه من المصائب

« ... وقد ذكرت الصحف كيف أن اسماعيل باشا الخديو كان يامر احد المديرين بتسميم المتهمين بالاشتركنين كما تسمم الكلاب الضالة الآن ،وهذا العمل هو على فظاعته ليس

الانتيجة هذه الطبيعة الاستبدادية التى نشأ عليها اسماعيل ، حتى أنه لم يكن يستطيع أن يروض نفسه على الصبر ومحاكمة المتهمين أمام المحاكم ، لأن استبداده كان يدفعه الى التعجيل بالقضاء عليهم . وكل أمة فى العالم كائنة ما كانت ، تسمح للملك المتولى الحكم عليها أن يستبد بها ، جديرة بأن تجد منه مثلما وجدنا من توفيق أو اسماعيل : الأول ينضم الى العدو على البلاد ، والثانى يستخدم رجال يسمون الناس بالاستركنين»

ونشرت خمس صور لخمسة ملوك مخلوعين ،وقلت أن السبب لخلعهم أنهم لم ينزلوا على ارادة الشعوب . وكان الهدف المقصود واضحا ، ولو بالبناء للمجهول

ولم يكن عدد واحد من مجلة « المصرى » يخلو من الهجوم على اسماعيل صدقى الذى ألغى دستور ١٩٢٣ وألف دستوراً ينكر سيادة الشعب ويفتح الأبواب للغش والخديعة فى الانتخابات للبرلمان

هذا هو كفاحى السياسى الذى أستطيع أن أقول أنى خدمت به الشعب فنبهته إلى حقوقه وإلى ضرورة المقاومة لطغيان المستبدين

ثم كان لى أيضاً فى ١٩٣٠ كفاح آخر للمستعمرين . وقد جعلته ايجابيا بنائيا ، وذلك بإنشاء « جمعية المصرى للمصرى »

ذلك أن فهمى للاستعمار كان ومايزال ينطوى على أنه نظام يقوم لاستغلال المستعمرات . وذلك بتشجيع أبنائها على الإنتاج الخام فى استخراج المواد الخامة زراعية أم معدنية . ثم حرمانها الصناعة . وعندئذ تشترى الأمة المتسلطة منتجات المستعمرة الخامة بأتفه الأثمان . ثم تعود فتبيعها لها ، بعـــد استصناعها ، بأعلى الأثمان . وألفت جمعية

« المصرى للمصرى » كى نضرب الاستعمار البريطانى فى أساسه هذا . وكان قانون الجمعية يشترط على أعضائها ألا يشتروا سلعة أجنبية مادام هناك مايقابلها من السلع المصرية ، وأن يقاطعوا المصنوعات الانجليزية ، وأن يتجروا مع التجار المصريين دون التجار الأجانب

ودعوت إلى ايجاد متجر مصرى فى شارع ٢٦ يوليه (فؤاد كما كان يسمى وقتئذ) ولم يكن به متجر مصرى واحد . واحد فقط

هل تصدق هذا أيها القارىء ؟ هل تصدق أنه لم يكن فى هذا الشارع متجر مصرى واحد فى ١٩٣٠ ؟

واستطاعت جمعية « المصرى للمصرى » أن تحمل بنك مصر على أنشاء « محل بيع المصنوعات المصرية » فى هذا الشارع . وكان عرضنا الأول على المرحوم طلعت حرب مبلغا مقداره ألف جنيه قدمه وكيل الجمعية (وكنت أنا الرئيس) شيكا باسم هذا المتجر . وكان هذا الشيك بداية المشروع

وسارت حركة « المصرى للمصرى » فيما يشبه الالتهاب . وانتشر الوعى الاقتصادى بين الشعب ، فصار « التاجر المصرى » هو المقصود الأول . وكان من أعضائها الوزير فتحى رضوان والوزير نور الدين طراف وأحمد حسين

وكان هذا كفاحى للاستعمار

ثم كان لى كفاح ثالث هو هذه الرجعية ، التى تستسلم للغيبيات ، ولاتسلم بحرية المرأة ، ولا تقبل على الآراء العصرية ، ولا تحتضن العلم . وكان من أثر هذا الكفاح أن شيخ الأزهر وقتئذ (١٩٣٠)

كتب إلى وزارة المعارف يحذرها من خطرى ، وأنها يجب ألا تشترك في « المجلة الجديدة » التي كنت انشرها . وأطاعته الوزارة في جبن وجهل

هذه هي أنواع الكفاح الثلاثة كما مارستها في ١٩٣٠ ، وقد أدت إلى تعطيل مجلاتي جميعها : ما كنت أملكه وما كنت استأجره . فهل فشلت ؟ أن النظرة السطحية توهم الفشل . ولكن النظرة العميقة توضح النجاح كما يجب أن يكون

ذلك أنه كان في مستطاعي أن أجعل مجلاتي « متفرجة » محايدة ، تنشر الخبر والصورة والمقالة والقصة ، وتقرأ للتسلية والترويح على المقهى أو في القطار . يتصفحها القارىء فلا يجد مايبعث فيه حزنا أو غضباً أو حافزاً على عمل أو جهد أو باعث على اتجاه وتسديد إلى هدف. وعندئذ كان يكون النجاح العرفي ،نجاح المال والاقتناء

ولكن الصحافة رسالة . وهي كفاح . وقد كافحت من أجل الدستور. وكافحت الانجليز بالعمل الايجابي الصالح الباقي ، وهو الدعوة إلى التجارة والصناعة المصريتين وكافحت الرجعيين الذين يكرهون العلم ،ويحتقرون المرأة ، ويسبون الشباب

واعتقادي أني نجحت في كل ذلك . وان كانت مجلاتي قد ماتت كان نجاحي صحفياً ، ولكني فشلت ماليا . بل إني بعت بعض ممتلكاتي كي أتجاوز الأزمة المالية التي أحدثها لي اسماعيل صدقي في ١٩٣٠

ولكني عندما أسير الآن ، في ١٩٥٦ ، في شارع ٢٦ يوليه (فؤاد سابقاً) وأرى على صفيه متاجر مصرية كبيرة وصغيرة أحس

بالفرح بل الطرب يغمرنى ، حين أذكر أنى كنت أسير فى هذا الشارع فى ١٩٣٠ وقبلها فلا أجد متجراً مصرياً واحداً . لأن التجارة المصرية وقتئذ كانت محدودة محصورة ، بل محبوسة ، فى خان الخليلى ، لاتزيد على بعض التحف من النحاس الأصفر وفسيفساء العظم أو الصدف . وكان الانجليز قد نجحوا فى إيهامنا بأن « بلادنا زراعية » حتى أن مقاعد التلاميذ فى المدارس كانت تستورد من انجلترا . وكان المصنع المصرى لايجد تعريفا فى قوانيننا غير أنه « محل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر »

* * *

وفى بداية هذا العام قدم الى القاهرة أديب انجليزى من الطراز الاستعمارى القديم هو سومرست موم . وقد حزن عندما رأى متاجرنا فى شارع ٢٦ يوليه وأسف على أننا تركنا خان الخليلى

وبعض الفضل فى أسفه الاستعمارى ، ان لم أقل كل الفضل ، لجمعية المصرى للمصرى التى أرصدت صحفى فى ١٩٣٠ لخدمتها والدعوة لها

صحافة المقالة وصحافة الخبر

كانت بلادنا فى أيام اسماعيل مركزاً عالمياً لهجوم رأس المال الاوربى. ومن هنا مشروعات اسماعيل الكثيرة التى انتفعنا ببعضها كما وقعنا فى الافلاس بعد ذلك بسبب بعضها الآخر . وفى أثر هذه المشروعات ،وفى تزاحم الدول والشركات ، وفى التنبه العام الذى أنتجه تصادم الطبقة الحاكمة بالاجانب ، ظهرت بعض الصحف

ثم فى أيام توفيق زاد التنبه العام للتصادم بين المصريين المحكومين وبين بقايا الاتراك والشراكس الحاكمين . فظهرت صحف أيضاً تشايع الشعب .ثم جاء الاحتلال.فأوعز الانجليز لبعض الكتاب بايجاد صحف اخرى تشايع الاحتلال ضد الدولة العثمانية

ولذلك نرى روسيا القيصرية تؤسس جريدة يومية بالاسكندرية تجعل من دأبها الطعن فى الدولة العثمانية والدعاية لروسيا القيصرية . وكانت تنوى القضاء على الدولة العثمانية بالاستيلاء عليها واختراقها الى البحر المتوسط

ثم نرى بعد ذلك ، أيام الاحتلال البريطانى ، جريدة يومية اخرى

ينشئها الانجليز ، ويغذونها بأموالهم ، للطعن فى الدولة العثمانية ايضـاً والاكبار من نزاهة وعدل الدولة البريطانية

وبقى الميدان الصحفى فى مصر ، باستثناء فترة قصيرة ظهرت فيها صحف الدعاية للثورة العرابية ، وقفا على هاتين الجريدتين

ثم رويداً رويداً ظهرت الصحف الوطنية التى تدعو الى الاحساس المصرى والوعى القومى بالدعوة الى الاستقلال فكانت المؤيد ثم اللواء ثم الجريدة

ولما كانت الدعاية هى الهدف ، فان هذه الصحف جميعهـا ، مع الصحيفتين السابقتين ، قبل الاحتلال وبعده ، كانت صحف المقالة . لان الدعاية ليست أخباراً بقدر ما تكون مقالات

المقالة الانشائية فى مدح روسيا ، ثم فرنسا ، ثم بريطانيا ، ثم بعد ذلك على أيدى الوطنيين المصريين: على يوسف ، ومصطفى كامل، ولطفى السيد . المقالة الانشائية فى مكافحة الانجليز ، والدعوة بقلم لطفى السيد الى الاصلاح الاجتماعى ومكافحة الرجعية

وأصبحت « المقالة » أساس الفن الصحفى . أما الخبر فقد تقهقر الى حد الاهمال التام أحيانا . وبقينا على هذه الحال الى حوالى سنة ١٩٣٠ حين اتخذ الفن الصحفى ميدانا آخر للمباراة والتفوق بالخبر والصورة . وكان للتقدم المطبعى فضل كبير فى ذلك ، لان للصورة بأناقة طبعها قوة جذبية كبيرة . وهى فى صميمها خبر

كان موقفنا الوطنى، فيما بين الثورة العرابية الى حوالى سنة ١٩٣٠، موقف الكفاح السياسى للاستعمار البريطانى . وأيضاً للاستبداد الوطنى ،

الذى كان يمثله امراء وملوك من أسرة محمد على . والواقع أن كل كاتب مصرى على شيء من الذكاء كان على وعى تام بأننا منذ الحركة العرابية الى ١٩٥٢ كنا نكافح عباس أو حسين أو فؤاد أو فاروق كما كان أسلافنا يكافحون توفيق والطغمة المحيطة به من أتراك وشركس

وكلمة الكفاح تعنى فى النهاية تنبيهاً وتحميساً وتحريضاً . وكل هذه المعانى كانت تستوعبها المقالة. وظهرت مقالات مصطفى كامل الإلتهابية فى التحميس لتنبيه الشعب الى ضرورة السعى والجهاد للاستقلال، ومقالات على يوسف المنطقية ضد الانجليز ، واخيراً مقالات لطفى السيد فى مكافحة الرجعية والدعوة الى الاصلاح الاجتماعى . وعلى هذه الاقلام نشـأ عبد القادر حمزة ، فنقل المقالة الى المناقشة الحزبية

وأصبحت المقالة من تقاليد الصحف المصرية . لا ينشد صحفى التفوق بدونها ، ولا يفكر أحد فى البراعة الصحفية عن طريق الخبر الداخلى أو درس السياسة الخارجية . وما زلنا ، نحن المسنين ، نذكر كيف كانت الاخبار الخارجية أخبار العالم والانسـانية ، تهمل إهمالا كبيراً فى صحفنا القديمة ، اللواء والمؤيد والجريدة ، حتى كانت تلغرافات رويتر توجز فى نحو عشرين سطراً فى عمود ناء خفى من أعمدة الصحيفة

وظهرت فيما بين الاحتلال الانجليزى و ١٩٣٠ مدرسة الصحافة المقالية . يكتبها كتاب برعوا فى الاسلوب والجدل المنطقى واستوعبوا مقداراً كبيراً من الثقافة العامة التى يجهلها كثير من الصحفيين المحدثين فى وقتنا. ولذلك كان معظم هؤلاء الكتاب مؤلفين أو كانت مقالاتهم الصحفية من القيمة والخطورة بحيث صارت تجمع وتضم بين دفتى كتاب.

وما زال بعضها يقرأ الى الآن كما نرى مثلا فى مقالات لطفى السيد فى الجريدة أو غيره من الكتاب القدامى

وفضل هؤلاء الصحفيين المقاليين أنهم استطاعوا أن يبتدعوا أسلوبا كتابيا سهلا يستطيع أفراد الشعب الذين لم يحصلوا على مقدار كبير من الثقافة أن يفهموه ويسيغوه . وصار لهذا الاسلوب قيمته فى ايجادالقراء للصحف . كما أن لغتنا لانت ومرنت بعد ذلك للتأليف الشعبي

ويمكن أن نصف صحف المقالة بأنها كانت صحفا « شخصية » ذلك لأنها ، حين أهملت الخبر وعنيت بالمقال،أصبح صاحب المقال « بطلا » عند القراء . يشترون الصحيفة من أجله لقراءته وحده ثم يطرحونها بعد ذلك . ثم هو كان ، لتوالى مقالاته ، عرضة لاضطهاد المستعمرين والمستبدين . ولذلك كثيراً ما كان يحبس فيعود شهيداً أمام الجمهور . ولم نكن نشترى اللواء أو المؤيد مثلا فيما بين ١٩٠٠و١٩١٠ الا لنقرأ مقالات مصطفى كامل أو على يوسف

ويجب أن أنبه هنا أيضا الى أن صحف المقالات سبقت صحف الاخبار لأنها كانت تعانى ضعفاأصيلافى ممكناتهاومقتنياتها.فلم يكن جمهور القراء كبيراً ، وخاصة عندما نذكر أن التعليم كان محدوداً . وكانت اللغة الانجليزية تعلم بدلا من العربية منذ السنة الاولى الابتدائية . ولذلك لم يكن دخل الجريدة يمكنها من استخدام عشرات المخبرين الذين تستخدمهم الصحف فى وقتنا . كما أن التقدم المطبعى لم يكن قد تحقق . ولهذا التقدم قيمته الكبرى فى جعل الصحيفة خبرية بدلا من أن تكون مقالية ، وفى وصولها الى أكبر عدد ممكن من القراء للقوة الاغرائية فيها

ومع أنى لا أنكر أن للخبر قيمته فى تربية القارىء ، وأن الصحيفة العصرية تستطيع بالخبر الدال أن تربى قراءها ، فانى مع ذلك آسف على أن صحيفة المقال قد اختفت واختفى معها الكتاب الكبار الذين كانت تجمع مقالاتهم الصحفية كتبا تقرأ وتحفظ. وأمامى، هذه اللحظة ، أربعة مجلدات للطفى السيد هى بعض مقالاته الصحفية فى الجريدة. ولى أنا ستة مجلدات عن موضوعات ثقافية مختلفة نشرت جميعها بالصحف اليومية، حين كانت صحف مقالات ، ثم جمعت كتبا تقرأ وتحفظ لقيمتها الثقافية . وكذلك الشأن مع غيرى من الكتاب القدامى

كنا نكتب للتفسير والتثقيف والتعليم . وكانت بضاعتنا رائجة . ولا أنكر أن الصحف العصرية « الخبرية » لا تزال تقدرنا . ولكنى أحس أنها تفعل ذلك تفضلا وليس ضرورة . لانها تستطيع أن تستغنى عنا اذا كان الهدف هو الانتشار وعدد ما يطبع من الصحيفة فقط

ثم أن هناك ذلك الشطط الذى يحيل صحيفة الخبر أحيانا الى اختيار الخبر المغرى لغرابته ، وإن لم يكن له أى مغزى أو دلالة . وذلك جريا وراء المثل الصحفى المعروف ، وهو أن خبر الرجل الذى يعض الكلب خير من خبر الكلب الذى يعض الرجل . وقد شاع هذا الطراز من الاخبار فى أيامنا ، وكان خبر الجمل الذى فر من المجزر الى قصر عابدين كى يستغيث بفاروق حتى لا يذبح ، بعض هذه الاخبار

* * *

وانتقلت الصحافة فى مصر من صحافة المقالة الى صحافة الخبر . وكان هذا تطوراً أو انتقالا طبيعيا

وذلك أننا منذ الثورة العرابية كنا فى كفاح لا ينقطع لأعداء هذه الثورة.

وكان احتلال الانجليز للقاهرة قد صعق الشعب وجمد احساسه ، كأنه قد ارتضى الهزيمة يأسا. ومن هنا التفسير لرواج الاشاعات التى أشاعها أعداء الشعب بأن عرابى كان خائنا . وصحيح أن جمهور الشعب لم يصدق هذه الاشاعات ، ولكن الحاح الطبقة الحاكمة ، من الاتراك والشراكس ، على ترويجها جعلها مستساغة عند بعض الوطنيين الذين تساءلوا ، عقب الهزيمة ، عن مقدار الحكمة فى رجال الثورة . ومن هنا اجتراء الشاعر شوقى على ذم عرابى ومدح الخديو توفيق ، وإن يكن هذا الشاعر نفسه قد عاد ، فى الطبعة الثانية لديوانه، فحذف أبيات السباب التى سب بها عرابى .وذلك بضغط الرأى العام

وفى هذه الحال تعين على الصحفيين المصريين ، عبد الله نديم ومصطفى كامل وعلى يوسف ،أن يعيدوا الثقة الى الشعب ،وأن يحملوه على استئناف الكفاح ليس ضد الخديو فقط بل ضد الانجليز أيضا . وسبيل ذلك المقالة

وازدادت قيمة المقالة فى ثورة ١٩١٩ . فان جميع جرائدنا وقتئذ كانت جرائد الدعوة الوطنية لا أكثر . ولم نكن نشترى الصحيفة كى نقرأ خبراً بقدر ما نشتريها كى نقرأ مقالا لاحد الكتاب ، الا إذا كان هذا الخبر خاصا بالثورة

كان الصحفى الفذ فى ١٩١٩ وما قبلها هو كاتب المقالة ، فى حين أن الصحفى الفذ فى ١٩٥٨ هو راوى الخبر . وكانت الصحيفة المصرية الى ١٩١٩ تفتتح صفحتها الاولى بمقال وطنى فى حين هى فى ١٩٥٨ ترصد هذه الصفحة للاخبار الداخلية والخارجية

ثم هناك سبب آخر لإيثار المقالة على الخبر فى صحفنا القديمة . ذلك أن قدرتها المالية وممكناتها الفنية المطبعية كانت صغيرة ، فقد

كان القراء قليلين لقلة المدارس ، وكانت الامية فاشية تعم نحو ٩٠ فى المائة من أفراد الشعب أو أكثر ، لأن الاستعمار كان يحرص على ألا يفشى التعليم بيننا حتى لا يؤدى الى وعى وطنى ينقلب الى عداء شعبى عام للمستعمرين . وحسب القارىء أن يعرف أن وزارة « المعارف » لم تنشىء مدرسة ثانوية للبنات الا سنة ١٩٢٥

ولما كانت صحيفة الخبر تتكلف من النفقات نحو خمسين بل مائة ضعف ما تتكلفه صحيفة المقالة ، فان الصحف القديمة ، قبل انتشار التعليم ، كانت صحفا فقيرة لا تجد العدد الكبير من القراء الذين يمكنونها من الانفاق بسخاء على جمع الاخبار . فكانت لذلك صحف المقالات هى الصحف العامة

ولكن ثورة ١٩١٩ أوجدت وعيا صحفيا جديداً لاهتمام الشعب بحركة الاستقلال وما تخللها من حوادث القمع والحبس والنفى والاعدام التى قام بها الانجليز . وكانت هذه الحوادث أخباراً ، تواليها الصحف بالعناية وتنشر تفاصيلها يوما بعد يوم . وتخلل هذه الحوادث دسائس قام بها القصر لتحطيم الحياة النيابية البازغة بمؤازرة الكتاب المارقين . ومع أن هؤلاء الكتاب كانوا متخصصين فى المقالات فإن التفزز العام ويقظة الشعب احتاج كلاهما الى صحف جديدة للاخبار تغذو تلهف القراء على الجديد فى الحركة الوطنية

وظهر حوالى ١٩٢٥ نوع جديد من المقالات

ذلك أننا كنا نقرأ المقالة قبل ذلك فنجد تحمسا وتنبيها يشبه الى حد كبير مقالات مصطفى كامل . وكانت اللهجة الخطابية تغلب عليها ، اذ

كان الكاتب يخاطب عواطفنا كى يلهب احساسنا لمكافحة الاستعمار وتحقيق الدستور. ولكننا شرعنا حوالى هذا التاريخ نقرأ المقالة الخبرية أو الخبر المقالى

وكان بطل هذا الابتداع محمد التابعى ، الذى أستطيع أن أصفه بأنه أبو الصحافة المصرية الحديثة بكل ما فيها من ميزات وعيوب . ذلك أنه شرع فى مجلة « روز اليوسف » ، ثم بعد ذلك مجلة « آخر ساعة » ، يجذب أكبر عدد من القراء بنشر التفاصيل المغرية عن المسرح والطبقة العليا من الشعب ، أو ما يسمى المجتمع الراقى . ثم انتقل من هذه الموضوعات الى الاخبار السياسية التى لم يكن ينشرها أخباراً وانما مقالات مفصلة . وبهذه الطريقة ربط بين الشعب وبين السياسة وأوجد المقال الخبرى بدلا من المقال الخطابى

وعاونه على ذلك التقدم الفنى فى الطبع

ذلك أن المقال الخطابى العاطفى الذى كنا نجده فى توفيق دياب ، أو المقال السياسى النقاشى الذى كنا نجده فى عبد القادر حمزة ، لم يكن أحدهما يحتاج الى الصورة أو اللون . ولكن الخبر الذى يحتاج إلى الصورة الكاريكاتورية ، ثم صورة الممثلة التى تتلألأ فى جمالها المطبوع أو المصنوع ، واتقان الطبع والاخراج بالآلات المطبعية الحديثة ، كل هذا قد رفع من شأن الصحف الخبرية وجعل لها المقام المفضل على الصحف المقالية

وهنا ظهرت طائفة الصحفيين المخبرين

وليس معنى قولى هذا أن صحف المقالات . مثل اللواء والجريدة والبلاغ ، لم تكن تبالى بالاخبار وتعنى بها ، فقد كان لها مخبرون ولكن

مراكزهم الصحفية كانت ثانوية الى جنب مكانة المحرر كاتب المقال الافتتاحى أو المقال الاوسط أو المقال الادبى . وكان معظم نشاطهم يتجه نحو موظفى الحكومة ، وتنقلاتهم وترقياتهم ، وما يستطيعون الحصول عليه من دوائر البوليس والنيابات ، يكتبون ذلك كله فى إيجاز وجفاف ليس فيها أى اغراء فنى صحفى . ولكن بعد حوالى ١٩٢٥ برزت الاخبار وتفوقت على المقالات . بل أخذت صيغة المقالات . وصارت الجريدة توفد أحد مخبريها لحادث يقع فى السويس أو أسوان، بل فى بغداد أو الظهران ، فيوافيها بتفاصيل أحد الحوادث يوما بعد يوم، ويرسل اليها الصور ، التى لم تكن تعرفها صحفنا القديمة ، والتى تشوق القارىء مثلما تشوقه سائر التفاصيل . وهذا المخبر لم يعد يكتب الخبر فى الايجاز الذى كان يكتبه سلفه ،إذ هو يحيله الى مقالة أو مقالات

وظهرت المجلات الفنية التى تحيا على الاخبار فقط. ولكن كل خبر داخلى أو خارجى يستغرق الصفحة الواحدة أو الصفحتين أو أكثر مع الصور . ولذلك لا نكاد نجد مقالا واحداً فى « آخر ساعة » مثلا من تلك المقالات التى كنا نجدها فى الصحف قبل ١٩٢٥ ،وانما نجد أخباراً مقالية أو مقالات خبرية

وقد يسأل القارىء هنا هل هذا خير أم شر؟ هل هو كسب أم خسارة؟

والجواب أنه كلا الاثنين . ومع ذلك أنا أؤثر صحفنا الحديثة التى تعنى بالاخبار على صحفنا القديمة التى كانت تعنى بالمقالات. فان للاخبار قيمتها الكبرى فى زيادة الوعى الانسانى . فضلا عن الوعى الوطنى وقد يقال أن الصحف العصرية تعنى كثيراً وتسرف فى نشر الاخبار

الخاصة بالجرائم والجنس . وهذا صحيح . ولكن يقابله انعدام هذه الاخبار من الصحف القديمة ، وما دامت الاخبار صحيحةفنحن نحتاج الى الوقوف عليها ، ولكن بلا اسراف فى التفاصيل التى لا تزيدنا نوراً وفهما

ثم أن عناية الصحف العصرية بالاخبار قد حملتها على العناية بأخبار العالم . وهى أخبار لم نكن نعرفها فى جرائدنا القديمة . ولذلك صارت تخص صفحتها الاولى بهذه الاخبار وصرنا نجد كل صباح صورة حية لأحوال العالم الذى نعيش فيه والذى يجب ألا نجهله . والصحيفة هى ، بعد كل شىء ، للعالم وليست للوطن وحده

ثم هناك ميزة أخرى لصحف الاخبار الحديثة هى أنها لاعتمادها على المخبرين المتصلين بالشعب فى أحواله الارتزاقية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، قد أوجدت أسلوبا شعبيا فى الكتابة لم يكن يعرفه كتاب المقالات القديمة الذين كانوا يستلهمون الكتب أكثر مما كانوا يستلهمون الشعب . وهذا كسب كبير

المرأة فى الصحافة

عندما نتأمل الحال التى كان يعيش فيها نساؤنا قبل أربعين سنة ، حين كان الحجاب عاما والفصل بين الجنسين تاما ، ونقارنها بحالنا الحاضرة ونحن نجد المرأة السافرة بل العاملة ، نحس أن أجمل ما فى نهضتنا وأبعثها على السرور والغبطة هو هذا التطور الذى يشبه الوثبة

لقد ارتقينا فى التعليم وأصبح عندنا من طلبة الجامعات مايساوى ، بالمقارنة الى السكان ، عدد الطلبة فى أوربا

وارتقينا فى الصناعة فاصبح عندنا بعض المصانع . وكان الاستعمار يحظر علينا انشاء المصانع كما نحظر نحن بيع الحشيش أو سائر المخدرات

وارتقينا فى شئون وطنية مختلفة . ولكن أجمل الأنواع فى هذا الارتقاء هو انتقال المرأة المصرية من الأسلوب الشرقى فى العيش إلى الأسلوب الغربى .وهذا الارتقاء قد استتبع تغيرات عديدة فى العلاقات الاجتماعية ، فاصبحت كلمة « الحب » من الكلمات المحترمة التى لايخجل منها الشاب أو الفتاة

واقتحمت المرأة الميادين المختلفة فى النشاط المصرى . ومن أجمل

اقتحاماتها هذه أنها طرقت أبواب الصحف التي فتحت لها مع الترحيب والتقدير

وانى أعـــود بالذاكرة الآن إلى أول أمرأة مصرية كتبت فى الصحف . فاذكر « باحثة البادية » التى كانت تـكتب حوالى ١٩١٠ فى الجريدة حين كان يرأس تحريرها الاستاذ أحمد لطفى السيد . وكانت تـكتب بأسلوب عربى متين . ولم يـكن هذا عجيبا ، إذاهى ابنة اللغوى المشهور حفنى ناصف . ولـكنها كانت تـكتب وكأنها تنظر إلى قلمها من وراء البرقع ، تطالب بالمحافظة على التقاليد . ولم يكن هذا عجيبا أيضاً فانها كانت زوجة لأحد الوجهاء من العرب فى الفيوم . ولـكن إقدامها على الظهور بقلمها فى صحيفة يومية كان بدعة تبعث على اليقظة والنهوض على الرغم من دعوتها إلى المحافظة على التقاليد

ولـكن جاءت فى عقبها الآنسة مى . وهى فتاة فلسطينية أوسورية (قبل التجزئة الوطنية التى ابتدعها الاستعمار الانجليزى) قد نشأت فى بيئة مسيحية وتعلمت فى مدارس غربية . ولذلك عندما أقدمت على الـكتابة فى الصحف لم تجد العائق السيكلوجى الذى كانت تجده باحثة البادية . وكانت مع ذلك على معرفة باللغتين الفرنسيـــة والانجليزية وتعمق لآدابهما ، فـكانت مقالاتها فى الادب والاجتماع والحياة عامة ظاهرة جديدة فى الصحافة . بل كانت حياتها الحرة بصالونها الادبى فى القاهره ظاهرة اجتماعية كبيرة القيمة . وكانت تدعو إلى الحياة العصرية مع اعترافات هنا وهناك تجرى على سن قلمها فى مديح الشرق . ولم يـكن هذا المديح سوى الضريبة التى كانت تؤديها للرجعيين والمحافظين حتى حتى لا يناصبوها العداء ويـكرهوها على ترك الصحافة

وقد جرأت مى الكثيرات من الكاتبات المصريات واللبنانيات على الكتابة فى الصحف . وذلك أنها أجادت ، وتناولت الموضوعات المختلفة ، ولقيت احتراما ، فهيأت الميدان لغيرها من بنات جنسها اللائى أقبلن على الكتابة فى الصحف وهن لا يخشين لوما أو عيبا

ثم خف عنا ، عقب نهضة ١٩١٩ ، كابوس الاستعمار ، وإن لم يزل . فعدنا ننشىء المدارس الابتدائية والثانوية للبنات بعد أن كان الانجليز قد أقفلوها عقب الاحتلال فى ١٨٨٢ . بل أنشأنا الجامعة و « زحلقنا » الفتاة المصرية اليها خلسة من وراء ظهور المحافظين والرجعيين وما هى الا سنوات حتى كان عندنا الف من الفتيات فى المدارس الثانوية ثم مئات منهن فى الجامعة . ومازالت هذه المئات فى التكاثر حتى أصبح عندنا منهن فى ١٩٥٦ نحو ستة آلاف طالبة فى ثلاث جامعات

وقد ضنت الحكومات على خريجات الجامعة بوظائفها الا مع الشح ، ولكن الاعمال الحرة رحبت بهن . وكانت الصحف فى مقدمة المرحبات بهن

ووجدت الفتيات المتعلمات اغراء كبيراً فى الصحف . وخاصة عندما ظهرت المجلات المصورة التى عنيت بتصوير الاخبار والنابغات السينمائيات ، بل حين أسرفت فى هذا التصوير حتى فتنت به عقول الشبان والفتيات معاً . فكان الاقبال على القراءة أولا ثم الاقبال على الكتابة ثانيا . وأصبحت كل فتاة تحس شيئا من الاستعداد الصحفى تؤلف القصة أو المقال وتجرب قلمها فى النقد أو الوصف

وأحب أن اشير هنا الى أن اختلاط المرأة بالرجل كثيراً ما يرفع من أخلاق الجنس الخشن من حيث الارتفاع بالحديث الى الكلمات المهذبة . ذلك أننا نحن الرجال ، حين تغيب عنا المرأة ، نترخص فى استعمال الكلمات الغليظة ولا نبالى النكتة النابية .

ولكننا نحذر ذلك عندما نجد معنا امرأة

الفن الكاريكاتورى

مما يذكر عن جريدة « نيويورك تيمس » الأمريكية أن مديرها وجد فى انتشارها ركوداً أو تخلفاً عن سائر الجرائد التى تباريها فى السوق ، فشرع يتصفحها كى يهتدى إلى علة هذا الركود . وبعد دراسة للصفحات والأبواب قصد إلى رئيس التحرير واقترح عليه أن يبحث عن محرر قد اعتاد الشراب يكتب كل يوم حديثا للقراء يتألف من خطرته « السكرانة »

فلما سأله رئيس التحرير عما بعثه على هذا الاقتراح أجابه بأن علة الركود فى بيع الجريدة هى أنها مسرفة فى الجد ليس فيها كلمة مزاح أو نكتة مضحكة . وأن القراء يسأمون الجد ويحتاجون إلى شىء من الهزل من وقت لآخر

وعلى هذا الأساس اتجهت الصحف الكبرى إلى أن تخصص جزءاً من أعمدتها للكتاب المرحين . ولا تكاد تخلو جريدة من مثل هؤلاء الكتاب الذين يرفهون عن القراء بأحاديثهم

والصورة الكاريكاتورية هى ترفيه أنيق ، يحتاج إلى إعمال الفكرة وإستخلاص النكتة فى صورة تنطق أحياناً عن معناها ، بحيث لا تحتاج إلى كتابة شىء يفسرها ويوضحها أو هى تحتاج إلى أقل الكلمات

وقد ظهرت الصورة الكاريكاتورية عندنا منذ حوالى ١٩٢٠ واختصت بها مجلة الكشكول التي كان يصدرها المرحوم سليمان فوزى ، وكان يهدف منها فى كثير من الاحوال إلى غير ما خصصت له . فكان ينتقل بها من الترويح إلى التشهير بالوفـــديين . ولكنه مع ذلك فتح الباب وشق الطريق

ثم جاء محمد التابعى فجعل منها دراسة فى مجلاته التى كان يصدرها مثل روز اليوسف وآخر ساعة . وشاعت بعد ذلك فى بعض مجلاتنا ، ولكن جرائدنا اليومية لم تأخذ بها الا منذ قريب . وهى مع ذلك لم تعم جرائدنا حتى الآن

والصورة الكاريكاتورية خاصة وعامة

فهى خاصة حين تتناول إحدى الشخصيات فتبرز فيها سمتها أو موقفها فى شأن عام . وهى عامة حين تجعل من معناها نكتة لها قيمتها الاجتماعية. وهى بهذين النوعين تعالج السياسة كما تعالج الاجتماع ، وتوضح الأخبار والاتجاهات

والغاية من الصورة الكاريكاتورية هى ، كما قلت ، التخفيف من جدية الجريدة . وهى تروح عن القارىء لأنها تضحكه . ولكن لماذا يضحك ؟

ان للضحك تفسيرات عديدة ربما كان أقربها إلى فهمنا أنه يجعل من الشخص أو الأشخاص آلات قد غاب عنها التعقل . فهى تسلك سلوكا آليا ، وهذا هو تفسير «برجسون» . ومع أنى أجد فيه شيئا من الصدق فانى لا أجد فيه كل الصدق

فليس شك أن نكات جحا تنطوى على أنه ينطق ويسلك كما لو كان عقله قد غاب عنه فترة ما . كما فى قوله مثلا، عندما رأى جلبابه يطير من حبل الغسيل ، بأنه يحمد الله على أنه لم يكن على جسده . والنكتة هنا ساذجة نضحك منها لأننا نحس خطأ جحا وحسبانه شخصه كما لو كان مثل الجلباب سيطير معه إذا دفعته الريح

ولكن معظم النكات ينطوى على سخرية تعلو على السذاجة . مثال ذلك الصورة الكاريكاتورية التى نشرتها مجلة بنش الانجليزية ، ذلك أن الانجليز يصفون الاسكوتلانديين بالبخل ، وأيضاً ببطء الفهم

ونحن نجد فى الصورة رجلا اسكوتلانديا يلعب التنس . وبعد أن انتهى من الدور أراد أن يعطى غلام الكرة ، الذى يجلبها له حين تنأى عن ميدان اللعب ، قروشا . ولكنه لبخله أعطاه شيئا ضئيلا غاظ الغلام الذى أراد الانتقام . فاقترح على الاسكوتلاندى أن يرى بخته من كفه

ونظر الغلام إلى الكف وقال : « أنت اسكوتلاندى » . والمعنى هنا أنه بخيل

ووافق الاسكوتلاندى على ذلك . ثم قال الغلام بعد نظرة ثانية إلى الكف : « وأنت أعزب »

ووافق الاسكوتلاندى على هذا القول أيضاً . ثم نظر الغلام النظرة الثالثة إلى الكف وقال : « وأبوك أيضاً كان أعزب »

والذى يضحكنا هنا جملة أشياء ، منها أن الاسكوتلاندى يبدو فى الرسم مديد القامة ناضج الرجولة فى حين أن الغلام صبى لا يزيد على الثانية عشرة . واحساسنا بأن الصبى قد غلب الرجل يثير الضحك .

وهو يثيره أكثر حين نعرف أن الصبى أخذ من الرجل عوضاً عن حقه هذه السبة التى وجهها اليه . ثم نضحك أيضاً عندما نجد الاسكوتلاندى مرتبكا بشأن الاجابة الأخيرة ، فقد كان ينتظر كلمات حلوة منعشة فإذا به يجد لطمة

وهنا لايسعفنا برجسون بتفسيره الآلى للضحك

الصحافة والرأى العام

حضارتنا القائمة هى حضارة الغرب ، أى حضارة رأس المال ومعنى هذا أن كل انسان حر فى أن يقتنى ويدخر ثم يشترى العقار ويستغله . ومعنى الاستغلال أن نكسب منه اما بتأجيره ، كما نفعل فى المسكن ، وأما باستخدام عمال يعملون فيه بالأجر . فنكسب فى الحالتين . وكسبنا يعود الى مال ادخرناه ثم استغللناه . ونعيش بذلك على عمل الآخرين

وحضارة الغرب الاستغلالية هى التى أدت الى الاستعمار بكل ما جلبه على السكان فى المستعمرات من ظلم ، ونهب ، وتوحش ، ومرض ، وفقر ، وجهل

يفعل رأس المال هذا فى المستعمرات حين يستغل السكان بما يشبه السخرة بحيث لا يزيد أجر العامل على مليمات أو قروش حتى يكبر كسب صاحب أو أصحاب رأس المال . وهو يحاول أن يفعل أو يسلك هذا السلوك حتى فى بلاده التى نشأ فيها . ولكن نظم العمال النقابية هناك تقاومه وتكفه عن الفتك بالعمال . ثم هناك قوانين عديدة تخفف من طغيانه . كما أن الرأى العام على تنبه دائم لمحاولاته فى الاستغلال

الاجرامى

ووسيلة التنبيه للرأى العام هى الصحف

ذلك أن الصحافة حرفة ورسالة

هى حرفة من حيث أن أصحابها ومحرريها ومخبريها وسائر موظفيها وعمالها ينشدون منها الكسب أو الاجر كى يعيشوا مثلهم فى ذلك مثل جميع من يعملون ويكسبون

ولكنها أيضا رسالة . لها شرف الرسالة وواجب التضحية وشهامة الانسانية والوطنية . ومن هنا مواقفها الخطرة التى ربما تؤدى الى افلاسها. ولم تفلس جرائدنا المكافحة الا لمثل هـــذه المواقف التى اعتقد فيها الصحفيون أن الانسانية والوطنية تطالبهم فيها بالكفاح

وماتت صحفنا المكافحة وعاشت الصحف المتفرجة المحايدة

* * *

وفى تاريخ الصحافة المصرية كثير من هذه المواقف المشرفة

فان جريدة السياسة مثلا حاربت اسماعيل صدقى .بل حاربت الملك الاسبق فؤاد بشأن الدستور الذى ألغياه وسنا بدلا منه دستوراً آخر

وكذلك حاربت السياسة الوزارة فى اقدامها على اضطهاد على عبد الرازق لأنه نشر كتابه « الاسلام وأصول الحكم » وكان اضطهاد المؤلف اضطهاداً لحرية الفكر فى مصر

* * *

والاستعمار هو كارثة الانسانية فى القرن العشرين . وهو فى كل زمان ومكان كارثة . ولكنه يعود أكرث وأنكب حين يقع فى

حرب . ذلك أن الدولة المستعمرة تحس الخطر على ما انتهبته من أقاليم وثروات . وتحس ، مع الخطر ، أن حقها فى هذا الانتهاب المغصوب لا يزيد على حق الدولة التى تحاربها إذا تغلبت عليها ، إذ لن يكون لها أى حق فى هذا الحال فى أن تناشد العالم العدل أو الشرف أو الحق ، إذ هى ، بالاستعمار ، قد داست جميع هذه القيم . ولا يمكن أن يكون هناك عدل أو شرف أو حق مع الاستعمار

ولهذا السبب يطغى الإستعمار فى أثناء الحروب على المستعمرات ولا يبالى قتل الناس وخطف الأموال وتعطيل القوانين . بل لقد رأينا كيف كان الانجليز يخطفون الناس ويبعثونهم إلى فلسطين بدعوى أنهم « متطوعون » . مع أن هذا التطوع كان يحتاج إلى ربطهم بالحبال حتى لا يفروا وهم يقادون إلى فلسطين مكتوفين . . .

ولا يمكن أن ننتظر من المستعمر رأفة . بل الحق الذى نعترف به أنه مضطر إلى القسوة وممارسة الوحشية التى لعله قد يستنكرها وقت السلم . ذلك أنه يرى أبناء بلاده يقتلون ويمزقون ، وأن مصير وطنه فى كفة القدر الذى ربما ينتهى ليس بالهزيمة فقط بل بالفناء أيضاً . فكيف وهو فى هذه الحال نطالبه بالرأفة مع بلادنا وأبنائنا مدة الحرب ؟

ولكننا ، مع هذه التقديرات ، يجب أن نكافح ولا نستسلم

* * *

والرجل المتمدن المثقف فى عصرنا يقرأ جريدته للاستنارة عن شئون العالم. وقد ازدادنا وجداننا العالمى فى السنين الأخيرة بالأشتباكات السياسية والاقتصادية كما جعلت الطائرات والتلغرافات عالمنا هذا صغيراً

فى أبعاده كبيراً فى نفوسنا . فأصبحنا نهتم بأخبار هونج كونج ونيويورك وموسكو ولندن ودمشق وبغداد كما نهتم بأخبار اسيوط والاسكندرية. بل ربما يزيد اهتمامنا بهذه المدن الخارجية أكثر من اهتمامنا بمدننا المصرية

ولذلك فان الجريدة أو المجلة التى تقصر اهتمامها على شئون وطنها فقط انما تعد قروية فى عصرنا ، تتحدث أحاديث القرية وتجهل الآراء العالمية بشأن العالم

ثم أن تطور العلاقات المصرية بالدول العربية قد حمل الصحف مسئوليات جديدة بشأن التنوير والتعريف والتقريب

كيف نرفع الصحافة إلى مقام الأدب

من الحوادث التي يجدر بكل أمريكي أن يفخر بها أن أحد الناقدين في الولايات المتحدة كتب ذات مرة يقـــول أن « كرستيان سينس مونيتور » وهي من كبريات الصحف اليومية الأمريكية قد إنحط شأنها لأنها لم تعد تبالي بالآداب والعلوم ،وأنها كانت تعنى قبلا بتثقيف قرائها أكثر مما تعنى الآن

ولم ترد عليه هذه الجريدة بالأنـكار . ولـكنها عمدت إلى العدد الذي صدر في اليوم الذي فيه هذا النقد فجمعت مافيه من آداب وعلوم وفنون . وطبعت كل ذلك في كتاب مستقل يحوى أكثر من مائة صفحة . فـكان كتابا رائعاً لايزال يباع إلى الآن

وهذا محصول يوم واحد من جريدة يومية .

والحق أني لا أعرف في العالم كله جريدة تعلو على هذه الجريدة . فانها قد رفعت الصحافة إلى مقام الأدب ، وهي تختار لـكتابة أخبارها ومقالاتها أدباء وعلماء واجتماعيين وفنانين . والقارىء الذي يتناولها لايجد الأسلوب الأدبي فحسب وانما يجد الدلالة الاجتماعية في الخبر

الساذج ، ويجد الارشاد والتوجيه الفلسفيين فى المقال التحريرى

وما أجدرنا نحن الصحفيين المصريين بأن نلتفت إلى هذه المرتبة العالية التى بلغتها الصحف الاوربية والأمريكية، أو بلغها بعض الممتاز على الأقل . وخاصة بعد أن تفشت بيننا صحف تثير الأشمئزاز والألم سواء بنشر الكاذب من الأخبار أو الزائف من الآراء أو الفاحش من الصور والكلمات

ان الصحفى الممتاز هو الذى يكون قد وصل إلى الصحافة بعد أن انصهر فى بوتقة الاداب والعلوم والفنون ، بحيث يعالج حوادث اليوم بميزان الآدب ويكتب بالأسلوب الأدبى الذى يزيد الفهم ويصقل الذهن . والصحفى الممتاز هو الذى يبصر بقيمة العلوم فى التطور العالمى الحاضر ، فيكون على معرفة وتقدير لتولستوى وجيته وعلى دراية بالآمال والمخاوف بشأن الطاقة الذرية . والصحفى الممتاز هو الذى يفكر بعقل فولتير حين يتحدث عن قانون المطبوعات الحاضر فى مصر وعن سائر القيود التى تصاغ للحرية . والصحفى الممتاز هو الذى يدرس مشكلات مصر فى ضوء المشكلات والتيارات العالمية ، وأخيراً الصحفى الممتاز هو الفيلسوف الاديب العالم الفنان

وقد كان أعظم الصحفيين العالميين من هذا الطراز ، ولا يزال هذا شأنهم فى الجرائد الكبرى . بل ان بلادنا تستطيع أن تفخر بأن صحافتها جذبت اليها ، فى بعض الأحيان ، الأذهان الحية التى ترشد وتوجه . فإن «أحمد لطفى السيد» فيلسوف . وقد كان من حظى أن أوالى فى شبابى قراءة الجريدة ، وهو يحررها ، نحو ثمانى سنوات . وكان « عبد القادر حمزة»

أديبا . وكتابه عن « حضارة الفراعنـــة » يدل على الآفاق الواسعة المتراحبة التى كان يتطلع اليها ، من خلال المناقشات السياسية والحزبية ، فى السنوات الماضية . وكان«انطون الجميل» أديبا ، يتحدث عن بيت من الشعر باهتمام وعناية كما لو كان ينطوى على تغيير فى الوزارة . ومن وقت لآخر نجد لطه حسين نزوات صحفية تتسم بطابع الأدب السامى

وأحياناً أستسلم لخيال عابر وأسأل نفسى : كيف تكون حال هذه المجلة الأسبوعية أو هذه الجريدة اليومية لو أننا سلمنا رياسة التحرير فيها للطفى السيد ؟ لطفى السيد مترجم ارسطوطاليس ؟

ارسطوطاليس فى الصحافة ؟

أجل . . ولم لا ؟

لا . لا نستطيع أن نحتقر هذه الآراء إذا كنا عقلاء ، ولذلك انى آسف أشد الاسف على أن مثل لطفى السيد لا يوجد الآن فى صحافتنا

الصحفى كما يجب أن يكون

ليس شك أن الصحيفة اليومية تحيا وتصدر للخبر

الخبر هو أول ماننشد فى أية صحيفة يومية . وهناك من يستصغرون شأن الأخبار ، مع أن قيمتها التربوية بل الانسانية للحياة كبيرة جداً . اذ هى الصلة الروحية بيننا وبين الوطن الذى ننتمى اليه كما هى كذلك بيننا وبين العالم . ذلك أننا حين نوالى قراءة الاخبار اليومية عن أحداث العالم نحس قرابتنا لهذا العالم ، ونشتبك فى مشكلاته ، ونهتم بشئونه فى الاصلاح والتعمير . فنجد معنى لارتقاء الصين ، ودلالة فى مشروعات الرى فى مسيسبى بالولايات المتحدة ، ونفرح للتقدم الصناعى فى الهند . وفى كل ذلك نزداد انسانية ، وتتراحب آفاق جديدة متزايدة كل يوم لنمو الذهن ونضج النفس

ولكن الخبر مع ذلك ليس كل شىء فى الصحيفة اليومية ، وخاصة بعد أن ظهرت الإذاعة والتلفزة . فإن الصحيفة تصدر مرة واحدة فى اليوم فلانعرف منها أحداث العالم إلا مرة واحدة فى اليوم أيضاً . ولكن الإذاعة والتلفزة كلتاهما تستطيع أن توالينا بالاخبار طول النهار

والليل . فهما من ناحية الخبر أقدر من الصحيفة على الوصول إلى المستمعين والرائين

ولهذا نحن ننتظر التنوير والتعليق والتفهيم والتبصير فى الصحيفة بأقلام الكتاب الممتازين ، وهو مالانجده فى المذياع أو التلفزيون . بل حتى حين نجد هؤلاء الكتاب الممتازين فيهما فأننا لانلتفت اليهما بالعناية التى نلتفت بها إلى كتاب الصحيفة

وهنا يجب أن نلاحظ أننا نفهم بالعين وبالقراءة أكثر مما نفهم بالاذن والاستماع . ثم تمتاز الصحيفة بعد ذلك بأنها قيد الطلب ، نقرأها حين نريد بلامواعيد معينة لانستطيع تغييرها . نقرأها فى الفراش ، وفى المكتب ، وفى القطار ، وقت راحتنا وفراغنا دون أن نقسر على ميعاد لا يتفق وأعمالنا اليومية

وأحسن الصحفيين هو من عمل مخبراً فى بداية حياته الصحفية . وأحسن الكتاب المعلقين هو من اعتاد ، لسبق خدمته فى ايراد الخبر ، أن يصل بين الأخبار والمقالات أو يكتب المقال الخبرى أو الخبر المقالى ، أذ هو عندئذ يكسب تعليقاته حيوية الخبر ، ويبقى على الدوام متصلا بالمجتمع والانسانية والبيئة ، ولايشطح فى أبحاث تنأى عن اهتمامات الجمهور . أجل . ولايحتقر الجمهور ، كما هو الشأن فى كثير من الكتاب الصحفيين الذين لم يتمرسوا بالخبر قبل كتابة المقال

الأدب يجب أن يكون للشعب وللانسانية وللمجتمع . ولانقصد بكلمة الشعب تلك العامة من الغوغاء ، فننزل إلى أفرادها بمغريات وضيعة ننشد منها رواج القصة أو الكتاب أيا كان موضوعه .

وإنما تؤلف للشعب كله خاصته وعامته . وهذا مايجب أيضاً أن تكون وجهة الصحيفة بحيث تكتب للشعب لاللخاصة ولاللعامة

بل ان الشعب الامثل ، الشعب المتمدن ، يجب الا يميز بين الخاصة والعامة . اذ يجب أن يؤدى نظامه الديمقراطى السوائى إلى تعميم الثقافة ورفع مستوى التعليم ، بحيث لايحتاج الصحفى ، كما لايحتاج الأديب ، إلى الزعم بأنه يكتب للخاصة أو يتوسل باغراءات وضيعة إلى النزول إلى مايسميه مستوى العامة

ولان الصحيفة ، مثـــل الأدب أيضا ، تخاطب الشعب كله بمختلف اتجاهاته الثقافية والفنية والاقتصادية ، فانها يجب أن تستوعب جميع ألوان النشاط الذهنى السياسى والاجتماعى والفنى والعلمى . وهى حين تفعل ذلك تربى قراءها كما أنها تقرب بين طوائف الشعب

ولكن الذى يجب أن نؤكده هنا أن الصحيفة لايمكن أن تحايد . أى أنها يجب أن يكون لها مذهب أو مذاهب فى الوطنية والسياسة . فان فى الدنيا خيراً كثيراً وشراً كثيراً . والصحفى الذى يقول أنه ينقل الخبر ، وأنه لاشأن له بالعدل أو الاستبداد ، وبالاستعمار أو الاستقلال ، وبفساد الحكم أو صلاحه ، انما هو صحفى عاهر يفسق بذهنه . ولعله أيضاً يساوم على ضميره

فالصحفى ، مثل الاديب ، لايمكن أن يكون متفرجا ، يروى الأحداث ، ويقتصر على الرواية ، غير معنى بمايصيب الأمة أو الانسانية من خير أو شر

لا . ليس هناك برج عاجى سواء فى الادب أو الصحافة

وليس هناك في المجتمع الحسن متفرجون في الصحافة والصحفي ، كما يجب أن يكون ، يحتاج لهذا السبب أن يدرس كثيراً ويختبر كثيراً . وهو ، إذا كان قد بدأ حياته الصحفية بالمرانة على كتابة الخبر ، فإن اختباراته ستتكاثر طيلة حياته ، لأن الخبر سيبقى بارزاً في ذهنه يحركه إلى التفكير الذى يبنى ويعمر ، وإلى التعليق الذى يرشد ويهدى

أليست هذه الدنيا حوادث ؟ ثم أليست الحوادث أخباراً ؟

ان كل انسان متمدن ، يحيا في مجتمع متمدن ، يجب أن يشتبك في شئون هذا المجتمع . والصحفي أولى الناس بهذا الاشتباك . وأنا هنا أنظر إلى أخلاقه قبل أن أنظر إلى حرفته . اذ هو قد ينجح النجاح المالى إذا بقى متفرجا محايداً لحوادث بلاده والعالم . ولكنه لن ينجح النجاح الانسانى ، النجاح الشريف الذى يجب أن يهدف اليه كل صحفي ، إلا إذا اشترك مع مجتمعه في كفاح للخير والشرف والانسانية والعدل والاستقلال

وبعد هذه الكلمات العامة عن الصحفي « كما يجب أن يكون » نحتاج إلى كلمات خاصة تمس الحرفة مسا خاصا

ومع أنه يمكن أن يكون هناك تعليم خاص لتخريج الصحفي فأنى لا أتمالك الاحساس بأن الصحافة هواية قبل كل شيء . وقد ترجع في جذورها المختبئة إلى مايسمى في السيكلوجية «العرض» أو في التعبير المألوف «حب الظهور» . وقل أن يخلو صبى أو شاب من ذلك . ولهذا كثيراً مانجد الأغراء قويا بين الشبان للكتابة في الصحف فيما بين سن العشرين وسن

الثلاثين فيرسلون بمقالاتهم أو قصصهم إلى الصحف فإذا صادفوا نجاحا احترفوا الصحافة ، أو هم يكفون بعد أن يتحققوا أن كفاءتهم لا تعينهم على ذلك

الصحافة ، كالشعر والادب والفن ، هواية.

ولكن الهاوى يحتاج إلى التربية والتعليم حتى يمهر ويحذق ويحتاج إلى ظروف مؤاتية أيضاً فى الجمهور أو البيئة . وانى لأجد ، من اختباراتى الماضية التى تزيد على نصف قرن ، أن خير مايؤهل للصحافة الراقية ، فى بلادنا وسائر الأقطار العربية ، اتقان لغة أجنبية على الأقل . ولغتين خير من لغة . وذلك أن الاتصال بلغتين أجنبيتين ، مثـــل الفرنسية والانجليزية ، أو الالمانية والروسية ، يصل بين الصحفى العربى وبين التمدن العصرى . كما يتيح له الرحلة كل سنة أو سنتين الى أقطار أجنبية ينتفع بزيارتها ودراسة مؤسساتها وتجديداتها . ومن الغرور الكاذب أن نزعم أننا ، نحن الصحفيين المصريين مثلا ، فى « اكتفاء ذاتى » لانحتاج إلى اللغات والآداب الأوربية أو الامريكية. فإن حاجتنا إلى هذه اللغات لا تقل فى الصحافة الراقية عن حاجتنا فى الطعام للغذاء الصحى

وكما نحتاج الى اللغات الأجنبية ندرسها باتقان نحتاج أيضاً إلى زيارة الأمم الأجنبية وإلى الإقامة شهوراً أو سنوات فى باريس وبرلين ولندن ونيويورك وموسكو . كى نتعمق البواعث والحوافز فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والارتقاء . ذلك لأن الاستعمار والاستبداد كلاهما قد أخرنا عن اللحاق بموكب الحضارة العصرية ، فنحن فى حاجة لا تنقطع عن استملاء هذه الحضارة من الأمم المتمدنة المتقدمة . وأسوأ

ماتعانيه الصحافة المصرية في وقتنا من حيث تفاهة موضوعاتها وأخبارها يعود في النهاية إلى أن المحرر أو المخبر لم يدرس لغة غربية

وأعني أنه لم يدرسها دراسة الاتقان ، ولا أعني أنه لم يعرفها ، فإن المعرفة قد تكون رطانة لاتغني

ثم يجب أن يكون للصحفي ، كما للأديب والفنان والشاعر ، كفاح. وبكلمة أخرى يجب إلا يكون متفرجا متسليا بالكتابة وبالدنيا . وقد رأينا في مصر في الخمسين سنة الماضية عشرات من الصحف والصحفيين المتفرجين ، المتسلين ، الذين كانوا ينشدون « النجاح » بالأحجام عن التورط في مشكلاتنا السياسية والاقتصادية . فلا ينتقدون وزيراً ولا يبرزون فضيحة دارية ، ولا يعارضون خطة استعمارية أو استبدادية . بل رأينا كتابا مدحوا جميع الأحزاب ، وأثنوا على السادة العظماء ، من فاروق إلى الأذناب ، بقصائد ومقالات

يجب على الصحفي الشريف أن يشتبك ، وألا يبالي أن يؤدي به هذا الاشتباك إلى التورط في الحبس ، وأن يقع في الاضطهاد . إذ عليه أن يتحمل كل ذلك باعتباره جزءاً من حرفته ، بل من شرف حرفته ، وأن ينهض في وجه الظلم والفساد ولو أدى هذا إلى افلاسه ودماره

ذلك أن لكل حرفة مقتضياتها التي يقتضيها الشرف ، شرف الحرفة

فإذا وفد وباء كالكوليرا أو الطاعون على مصر فإننا ننتظر من الاطباء أن يهرعوا إلى مكان العدوى ويكافحوا هذا الوباء ، حتى مع يقيننا ويقينهم بأن الموت ممكن أن يكون جزاء خدمتهم واسعافهم

للمرضى : ولايمكن أن نقر طبيبا على الفرار من الكفاح أو الوقوف موقف المحايد المتفرج

كذلك الشأن فى الصحافة

فإذا واجه الصحفى ظلما أو فساداً أو استعماراً فإن عليه أن يكافح ، حتى ولو وثق بأن كفاحه قد ينتهى بدماره وسجنه وافلاسه . لأن شرف الحرفة يقتضى ذلك

والصحيفة المثلى هى ، بعد كل شىء ، معهد عام وليست مشروعا خاصاً . أى أنها تنصب نفسها ، وتنذر كتابها ، للخير والتربية والتطور والتجديد . توسع من صفحاتها للكاتب الناضج، وتوسع من اختباراتها للكاتب البادىء ، وتبقى أمام الشعب مصباحا يهدى فى الظلمات وعنوانا لمعانى الشرف والخدمة

ويجب الا ننسى أن لهجة الكاتب واسلوب تفكيره واتجاهه وهدفه، كل هذا ينتقل إلى القارىء ، فيعين مزاجه بل يعين أخلاقه . فإذا كان الكاتب مكافحا فإن القارىء سيكون أيضاً مكافحا . وإذا كان متفرجا محايداً فإن القارىء سيكون أيضا متفرجا محايداً

وفى عصرنا هذا حيث تتعدد المذاهب والأفكار ، وتتصارع الديمقراطية مع الاتوقراطية ، وتنتصب الحرية ضد الطغيان ، وينهض الاستقلال ضد الاستعمار ، ويجابه الفقر الفاحش الثراء الفاحش ، فى هذا العصر لاينبغى أن يكون هناك انسان محايد أو صحيفة محايدة

وبعد كل هذا الذى ذكرنا ، مما يوهم أن الصحافة مهنة شاقة كثيرة المسئوليات ، نحتاج إلى أن نقول أنها ليست مهنة فحسب وانما هى

حياة أيضاً . فالذى يختار الصحافة لايختار مهنة للكسب فقط ، بحيث يقصد إلى عمله فى الصباح ثم يعود إلى بيته فى المساء ، وقد نسى مهنته ، واشتغل بشئون عائلية أو اجتماعية أو ترويحية أخرى

لا ليست الصحافة كذلك ، إذ هى مهنة وحياة معا

وأقرب الأشياء اليها ، من حيث اندغام المهنة فى الحياة ، هو مهنة الزراعة أو مهنة التأليف . فالزارع لايحترف الزراعة فقط ويفصلها من حياته ، وانما هو يحيا حياة الزراعة التى لايقتصر اهتمامه بها على اقتصادياتها ومايكسب منها له ولعياله . وانما هو يجد فيها أسلوبا للعيش وأهدافا للسعادة لايجد مثلها ساكن المدينة . فهو يحب رؤية الأرض المحروثة يسير عليها ويتشمم منها ارج الخصوبة . وهو يألف البقرة والحمار والخروف ويحس صداقة انسانية نحوها . وهو يخرج فى ظلام الفجر الأبيض كى يرى الدنيا وهى صامتة قبل طلوع النهار . وهو يقنع بما يزرع ويحيا فى بطء بلا عجلة أو هرولة . وطعامه ساذج . ولباسه ساذج . إذ هو إلى حد بعيد لايزال ابن الطبيعة

الزراعة حياة كما هى حرفة

وكذلك الشأن فى الصحافة . فإن الصحفى العظيم يجد أنه مكلف دراسة الدنيا . وتلغرافات الصباح التى يقرأها ، والتى ترد اليه من أنحاء العالم ، يكاد يحس أنها رسالات شخصية اليه . والأسماء الجغرافية عنده تكتسب ألوانا انسانية. وهو يدرس الدنيا والمجتمع والسياسة والجريمة والحرب والتاريخ والادب والعلم ، كما لو كانت جميعها ضرورية لحرفته ، أى لحياته . وهو لهذا السبب يحس ارتقاء متواصلا . يقرأ ، ويختبر ،

ويبحث عن الحادث الخطير ، كى يتخلل أشخاصه ووقائعه ويعرف منه الأسرار فى البواعث . وهو يزور الأقطار الأجنبية بنفس الإحساس الإنسانى الذى يزور به المدن والقرى فى وطنه . وهو ، كما هى الحال عند محترفى التأليف للكتب ، يقتنى الكتب كى يقرأ ويستنير . أجل . ويؤلف

وإذن يجب أن نقول أن أعظم مايعوض الصحفى العظيم من مشاقه أنه يحس ارتقاء متواصلا عاما بعد آخر . أى يحس أنه ينمو ، ويزداد نضجا ، بل ايناعا ، فى الإنسانية

فهرست

مطبعة التقدم
٤٤ شارع الموارد بالمنيرة . القاهرة
تليفون ٢١٠٦٠ ٢

كتابات هادفة

حياة انسانية شريفة

٢٣	حياتنا بعد الخمسين	١٩٤٤
٢٤	حرية العقل فى مصر	١٩٤٥
٢٥	البلاغة العصرية واللغة	١٩٤٥
٢٦	التثقيف الذاتى	١٩٤٦
٢٧	عقلى وعقلك	١٩٤٧
٢٨	تربية سلامه موسى	١٩٤٧
٢٩	فن الحب والحياة	١٩٤٧
٣٠	طريق المجد	١٩٤٩
٣١	(مجموعة قصص)	
٣٢	محاولات	١٩٥٣
٣٣	هؤلاء علمونى	١٩٥٣
٣٤	كتاب الثورات	١٩٥٤
٣٥	الادب للشعب	١٩٥٦
٣٦	دراسات سيكلوجية	١٩٥٦
٣٧	المرأة ليست لعبة الرجل	١٩٥٦
٣٨	برنارد شو	١٩٥٧
٣٩	أحاديث الى الشباب	١٩٥٧
٤٠	مشاعل الطريق للشباب	١٩٥٩
٤١	مقالات ممنوعة	١٩٥٩
٤٢	الانسان قمة التطور	١٩٦١
٤٣	افتحوا لها الباب	١٩٦٢
٤٤	الصحافه حرفة ورسالة	١٩٦٣
٤٥	معجم الافكار	

طبعة خاصة

٢٠

قرشا أو ما يعادلها